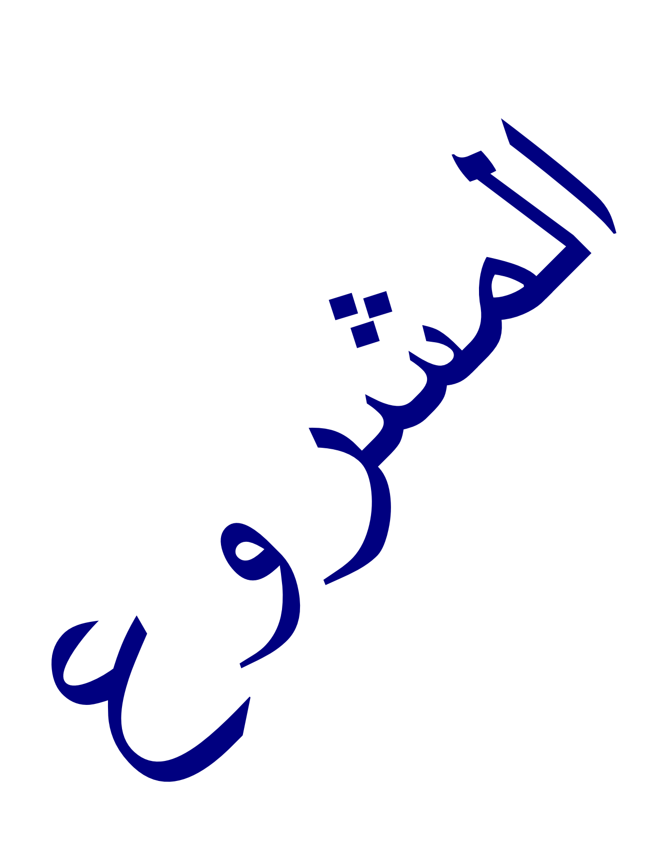
إبراهيم أصلان

صديق قديم جدا

رواية



الهيئة المصرية العامة للكتاب


المشروع

صديق قديم جداً

أصلان، إبراهيم.

صديق قديم جدًا/ إبراهيم أصلان. ـ القاهرة :

الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٥.

٢٠٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ٥ ٠١٧٠ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٦١٢/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0170 - 5

ديوى ٨١٣

صديق قديم جداً

إبراهيم أصلان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٥

أصلان، إبراهيم.

صديق قديم جدًا/ إبراهيم أصلان. ـ القاهرة :

الهيئة المصرية العامة للكتاب،٢٠١٥.

٢٠٠ ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ٥ ٠١٧٠ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية.

أ ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٦١٢/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 91 - 0170 - 5

ديوى ٨١٣

صديق قديم جداً

إبراهيم أصلان

وزارة الثقافة
الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. احمد مجاهد

اسم الكتاب : صديق قديم جدًا
تأليف : إبراهيم أصلان

الإشراف الفني : مادلين أيوب فرج
تصميم الغلاف : عمرو الكفراوي

صديق قديم

-1-

"آلو " .

" أيوه؟ " .

" الأستاذ عبد الله موجود ؟ " .

" أيوه. مين؟ "

" أنا بنت الحاج توفيق ".

رحت أفكر فى الاسم. والبنت أضافت بصوت ضعيف:

" الحاج توفيق عثمان. بتاع الكيت كات ".

انتبهت من فورى وتوجست.

" ماما قالت لى أقول لحضرتك، إن بابا تعيش انت " .

" إيه؟ " .

ومضت فترة من الصمت وسألت:

" كان عيان والا إيه؟ ".

قالت:

" أبدًا والله ".

وتمهلت:

" دى حتى الحكاية دى لما حصلت، كان ماشى فى الشارع ".

وأجهشت.

–2–

صديقى توفيق.

لم نلتق منذ سنوات. ولكن الأهل جميعًا يعرفون أنه أقدم الأصدقاء. كان يكبرنى بثلاثة أو أربعة أعوام. مع الوقت صار يعرف حتى معارفى البعيدين من هنا وهناك.. وأنا علمته التدخين والسهر فى إمبابة وخارجها والعودة إلى البيت آخر الليل. كنت أعيش مع أهلى فى فضل الله عثمان، وكان يعيش مع أهله فى الطابق الأخير من أحد بيوت حارة الصعايدة الطويلة المنحنية والموازية لفضل الله. الحارة الضيقة والبيوت

الضيقة التى لا يقل ارتفاع البيت منها عن خمسة أو ستة طوابق. وهى كلها ملك لعائلة توفيق، الأعمام والعمات وأبناء الأعمام والعمات والأخوال والخالات وأبناء الأخوال والخالات وغيرهم. توافدوا على مر السنين. كل من يأتى لا طموح له إلا امتلاك بيت فى الحارة أو قطعة أرض فى إمبابة أو على مشارفها، يبنيها مع الأيام، وقليل منهم يموت قبل أن يحقق هدفه، والبناء متواصل.

-3-

تعرفت به مبكرًا. وفى الثامنة عشرة كنت أعمل بهيئة البريد، بينما كان هو، شأن العديد من أبناء إمبابة، يعمل بنادى الجزيرة الرياضى الذى كانت عضويته وقفًا على الأجانب وكبار الملاك من المصريين وأبنائهم. كان أحد حاملى حقائب عصى الجولف الذين يرافقون اللاعبين. يتخير العصا الملائمة سواء أكانت للضربة الأولى أم غيرها من الضربات. وعندما تصل الكرة إلى الرقعة الصغيرة من النجيل الناعم، كان هو الخبير الذى يختار العصا التى يمكن استخدامها لإسقاط الكرة فى الحفرة المستديرة. وكان توفيق أطول منى قليلاً لا يقرأ ولا يكتب

ويتحدث الإنجليزية مثل أهلها.. يفعل ذلك بصوت عميق وفى فمه انحراف بسيط. وأنا أوعزت له وهو التحق بمعهد حكيم مرجان وحصل على الابتدائية القديمة. نشأت علاقة بينى وبعض الأثرياء والأجانب من نزلاء قصر الدوبارة؛ حيث أقوم بالتوزيع. كنت أحكى لتوفيق عن الميجور " وايز "، ذلك الرجل الباسم صاحب اللحية القصيرة البيضاء الذى لا يزيد طوله عن المتر والنصف، والذى يصيح باسمًا كلما رآنى " أوه. مستر عبد الله ". يخبرنى حسن، سائقه الأسمر الضخم، أنه فى أيام الآحاد يرتدى بذلة من القطيفة الحمراء أو الصفراء أو الخضراء وقبعة من نفس القماش ويحمل دلوًا ممتلئًا بأنصاف الفرنكات الفضية، ويتخير إحدى المناطق الشعبية؛ حيث يوقف عربته "الرولز رويس" ويغترف من الدلو ويبدر أنصاف الفرنكات الفضية على الأرض بين الأولاد وهو يصيح: " كلوا فول ". وبين حين وآخر كان يصر على منحى عشرة جنيهات، وهو مبلغ يساوى راتبى الشهرى لكى أقص شعرى الطويل جدًا. كنت أحب أحكى لتوفيق عنه، وكذلك عن " السويدى " هايد مارك " خبير السد العالى الذى يصر أن أشاركه كأسًا فى أعياد الميلاد. كنا نتناوله فى مدخل شقته بعمارة الشمس فى ميدان

قصر الدوبارة، ثم يتمنى لى عامًا سعيدًا ويغلق الباب. بينما توفيق يحكى لى عن رجال الأمن المدنيين الذين يطلبون منه أن يراقب مدخل غرفة تغيير ملابس بعض من يأتون للعب الجولف ويقلبون جيوب بعضهم ويصورون محتوياتها، ولم يمر وقت طويل حتى قبض على أفراد شبكة التجسس الكبرى التى صارت معروفة، على ما أذكر، بقضية " سوينبرن ".

وأنا افتقدت صديقى الميجور " وايز " فى الرقم "٨" شارع الشيخ بركات خلف السفارة الأمريكية، ثم علمت من البوابين والصحف أنه الرأس المدبر لشبكة الجاسوسية التى أمسكوها وأنه أفلت بنفسه وعاد إلى بلاده ولم يعثر عليه بعد ذلك أبدًا.

-4-

كان تزوج من خارج العائلة على غير رغبة والده الذى لم يكن يعلم أن العروس كانت تعمل مربية مع عائلة أجنبية وعاشت زمنًا خارج مصر، وأن توفيق تعرف عليها فى النادى حيث يعمل. كان يجيد الإنجليزية مثل الإنجليز، ونادية تجيد الفرنسية مثل الفرنسيين ويتحدثان مع بعضهما بالعربية طبعًا. وعندما كانوا يتوجهون لزيارتها فى بيتها أو تتوجه أسرتها

لزيارتهم فى بيتهم كانت تخلع ثيابها الحديثة وترتدى الجلباب وتضع على رأسها الطرحة السوداء. ونحن تأكدنا أن الحاج عثمان لم يعرف شيئًا عن الموضوع، ثم جاء يوم الفرح على سطح منزلهم وقبل أن يبدأ الطبل والغناء اتضح أن الحاج كان جاء بمقرئ راح يقرأ آيات من الذكر الحكيم وكنت أنا وتوفيق نستمع إليه ونستغرب.

-5-

قبل زواجه كنا نتحدث كثيرًا أمام مدخل منزلنا فى فضل الله عثمان؛ حيث نرى الحاج عثمان وهو يتوجه إلى جامع السنية بقامته الضئيلة فى الجلباب البلدى بطوقه المفتوح على الصدار المغلق. وكانت عمامته البنية الصغيرة تسبقه وهو يطرق برأسه، ولكن بلغته القديمة لم تكن تظهر إلا لمامًا تحت ذيل الجلباب الذى يجر فى تراب الطريق. كان يرمقنا من تحت حاجبيه دون أن يدير وجهه أو يبدو عليه أى تعبير.

أو كنت أعبر ممرًا جانبيًا من فضل الله عثمان إلى حارة الصعايدة التى تمتلكها عائلته وأنتظره أمام الباب؛ حيث يعيش فى الطابق الرابع أو السادس لا أذكر؛ ولكن الأيام جعلتنى أقترب من الحاج وأتأمل ملامحه عن قرب.

-6-

كانت كارثة ٦٧ قد حدثت وانتهى أمرها. ونزل الحاج مرة لصلاة الفجر ووجد إلى جوار الباب كائنًا صغيرًا يستلقى فى ثياب عسكرية مبقعة، ولما الحاج أبعد الشعر المنكوش عن وجه هذا الكائن حتى رأى فيه مسعودًا خطيب ابنته هندية، بعدما كانوا احتسبوه عند الله عز وجل، حينئذ راح يخبط بعصاه على الأبواب والشبابيك حتى استيقظوا وحملوه إلى فوق. ويحكى توفيق عندما كان يجلس أمامى على الكنبة ويشبك يديه فى حجره أن صديقنا مسعودًا كان هرب من الأعداء، وعبر شبه جزيرة سيناء ماشيًا على قدميه على مدى الأيام الطوال حتى عاد إلى البيت. وأنهم عندما صعدوا به وضعه الحاج عثمان فى دورة المياه وخلع عنه ثيابه كلها وراح يدلق عليه حلل الماء الفاتر ويدعكه بالصابون، ويغسل جراح قدميه المتورمتين ويخرج رمال الصحراء والحصى من شقوقها الكثيرة. وقال توفيق إن الحاج قلع الجلباب ووقف بلباسه الطويل، وجمعوا له كمية كبيرة من الحناء عجنها فى ماجور العجين وغطى جسده العارى بها، ثم لفه فى البطانية وجلس أمامه وراح يسقيه الحليب دافئًا،

استخدم القمع فى البداية، ولكن مسعوداً اختنق، فراح يستخدم الملعقة الكبيرة، أما عند الغذاء فقد وضع فى فمه قطعاً صغيرة من لحم البتلو المغلى وسقاه الشربة، ثم أنه ركنه فى الشمس؛ لكى يجف، وتركه وانصرف.

-7-

ارتديت ثيابى فوراً ورافقت توفيق. صعدت معه ورأيت مسعوداً وهو ملفوف فى ركن السطح. كان فى نصف حجمه الذى أعرفه، شمس الشتاء تغمره ورائحة الحناء تفوح بقوة فى السطح الصغير. ولم يمر وقت طويل حتى فتح عينين صافيتين وابتسم فى وجهى ثم أغمضهما، وكانت لحيته التى تغطى وجهه سوداء ونظيفة ومدلاة خارج البطانية التى تلفه، وموضوعة على صدره.

-8-

مضت أيام قبل أن يأتى توفيق ويدق على شباك حجرتى المطلة على الطريق. وعندما جلسنا سألته عن مسعود وقال إن الحنة جفت وأزالوها عن جسده ودلقوا عليه حلل الماء الفاتر

مرة أخرى وجراحه اندملت وترك السطح ويجلس الآن على الكنبة فى الحجرة الكبيرة. وقال إن الحاج بعدما اطمأن على نجاته أرسل برقية إلى والدته المريضة بالإسكندرية يخبرها أنه عاد من الحرب بسلامة الله، وأنه سيعود قريبًا إلى البيت. ومسعود طبعًا هو خطيب هندية شقيقة توفيق. وتوفيق طلب منى أن أرافقه يوم الخميس القادم؛ لكى نعيده إلى أمه عند محطة الرمل فى مدينة الإسكندرية، ثم نقضى السهرة هناك ونبيت الليلة فى أى لوكاندة ونعود يوم الجمعة آخر النهار، ولكى يسهل الأمر على قال إن والده الحاج عثمان سوف يتكفل بمصاريفنا نحن الاثنين، وأنا وافقته وخرجت إلى الصالة وأخبرت أمى أننى سوف أسافر يوم الخميس المقبل إلى الإسكندرية وهى تطلعت إلىَّ باستغراب ولم تعقب.

-9-

ارتديت ثيابى ورافقته وصعدت إلى الطابق الخامس؛ لكى أرى مسعودًا وهو فى ظروفه الجديدة ووجدته جالسًا على الكنبة تحت النافذة المقفولة وقد حلق لحيته السوداء التى كانت تتدلى على صدره. وعندما قلت له الحمد لله على السلامة،

بدا وجهه وهو يبتسم مختلفًا وبه قطع متناثرة من ورق البفرة التى ألصقها فى أماكن متباعدة على الجراح الدقيقة التى خلفتها الحلاقة، ولكن حجمه وهو قاعد على الكنبة كان مازال نصف حجمه القديم الذى كنت أعرفه. وجاءت خطيبته وابنة خالته هندية الصغيرة بأكواب الشاى على الصينية أمام نهديها الصغيرين تحت قماش جلباب البيت البنى بزهوره الصغيرة وهى تعصب رأسها بمنديل ملون، ثم رأيت ضفيرتيها الغليظتين متدليتين على ظهرها من الخلف. وتوفيق طلب منها أن تغلق الباب وراءها وأخرج علبة السجاير وفتحنا النافذة وجلسنا ندخن. وأنا كنت أريد أن أسأل مسعودًا عما جرى فى الحرب وهل رأى الجيش الإسرائيلى بعينيه وماذا كان يأكل وماذا كان يشرب وهو فى الصحراء الشاسعة، ولكننى أحرجت إذ ربما جرى ما لا يريد أن يحكيه وتركته حتى يحكى وحده عندما يأتى الوقت المناسب وقلت فى نفسى إن هناك فرصة أخرى لأننا سوف نترافق فى القطار كما أننى تذكرت أنه عاد من دون حذاء. ثم عدت وسألته سؤالاً ليس محرجًا عن الطريقة التى عبر بها قناة السويس، وهل عبرها سباحة أم ركب قاربًا وهو فتح فمه لكى يخبرنى، ولكن توفيق هو الذى تكلم وقال إن

مسعوداً عبر قناة السويس على الخشبة. حينئذ فكرت أنه لا بد وقد عثر على خشبة كبيرة ركبها وظل يجدف بيديه وهو يخفض رأسه كى لا يراه الأعداء حتى عاد. وبعدما أطفأنا السجاير عرض توفيق على مسعود أن يرافقنا إلى مقهى عوض الله؛ لكى نلعب طاولة ونتفرج على الناس ومسعود أنزل قدميه عن الكنبة، وبدأ يدسهما فى البلغة والحاج عثمان فتح باب الحجرة ووقف بقامته الضئيلة وعمامته البنية الصغيرة، وقال بصوته النحيل الخافت وهو ينظر إلى الأرض:

" سلام عليكم ".

وبعد ما رددنا السلام قال:

" على فين العزم ؟ ".

وتوفيق قال:

" لغاية قهوة عوض الله نشم شوية هوا ".

والحاج قال مستنكراً:

" إزاى؟ هو يقدر ينزل السلم ولا يطلعه ".

وتوفيق استغرب وسأل:

" أمال حناخده لغاية إسكندرية إزاى؟ ".

الحاج عثمان قال فى اقتضاب:

" دى حاجة. ودى حاجة تانية ".

" حاجة تانية؟ ".

" أيوه حاجة تانية خالص. أمال انت فاهم إيه؟ ".

-10-

عندما جلسنا فى القطار شربنا قهوة وشاى ودخنا مرة أخرى. ومسعود جلس جوار الشباك وراح ينعس، ثم يهب مذعوراً وبعد ما يتلفت حوله يرى الركاب ويرانا ويجلس وينعس مرة أخرى وفمه مفتوح. ولما نزلنا من التاكسى عند محطة الرمل، ودخلنا الحارة واقتربنا من البيت، أم مسعود رأت مسعوداً، وهى محمولة على الأكتاف وراحت تصرخ وتولول وكل نساء الحارة شاركوها البكاء.

-11-

كانت الحارة التى يعيش فيها توفيق طويلة وضيقة وبيوتها صغيرة وعالية وكلها ملك لعائلته التى كانت تأتى من الصعيد

لشراء هذه البيوت حتى امتلكوا الحارة كلها وحينئذ بدأ الوافدون الجدد منهم يبحثون عن أماكن أخرى فى أطراف المدينة يشترون فيها.

وأنا تذكرت هذا الكلام قبل ذلك، ولكننى أتذكره الآن ثانية ربما لأن تلك هى الأيام التى بدأ فيها توفيق، يرحمه الله ، الاقتداء بأفراد عائلته نحو امتلاك بيت أو آخر ، ثم عدم اكتفائه بذلك واندفاعه نحو شراء البيوت وبيعها أو شراء الأراضى والبناء عليها وبيعها وشراء غيرها، ثم بيعها وهكذا من دون توقف على مدى أربعين عامًا تقريبًا حينما اتصلت بى ابنته التى لم أكن رأيتها لتقول ، ضمن ما قالت ، إن ما جرى كان جرى وهو يمشى فى الشارع.

-12-

فى تلك الأيام البعيدة كان توفيق سمع أن عمه الحاج سلامة سوف يبيع بيتًا يملكه عند مطار إمبابة بمبلغ خمسمائة جنيه. كانت تلك المرة الأولى التى أراد فيها أن يشترى بيتًا لحسابه الخاص وأنا دهشت؛ لأنه يمتلك مثل هذا المبلغ، ولم يكن يصح أن يشترى بيتًا من عمه وإن كان يصح فلا يليق أن يفاصله، لذلك طلب منى أن أقوم بشرائه باسمى ثم نغير الأوراق. وفى

أحد الأيام أخذ المفتاح من عمه؛ لأن هناك زبونًا يريد أن يرى البيت وذهبنا لكى نتفرج عليه قبل شرائه وأنا وجدته بيتًا حجريًا من طابق واحد ينتصب وحيدًا على ربوة قريبة من أرض مطار إمبابة وبقية البيوت وراء هذه الربوة. كان له ثلاث أو أربع درجات حجرية بيضاء أيضًا تفضى إلى باب خشبى قديم وقبل أن ندخل مر بائع الخيار واشترينا الخيار وفتحنا الباب وتوفيق قال بسم الله الرحمن الرحيم ودخلنا. أشعلنا النور وعلى مقربة من الباب كان هناك سلم ضيق يفضى إلى السقف وإلى جواره بعض الصناديق الكرتونية الفارغة ومنضدة ضيقة عالية فوقها وابور جاز صدئ، والبيت كله عبارة عن حجرة واحدة متسعة ومفروشة بحصيرة صفراء وفى اليمين كنبة خشبية عليها حشية مكسوة بالدمور، وفى الركن من الناحية الأخرى كان هناك باب لدورة مياه بلدية بها طاقة مدورة قريبة من السقف يغلقها قرص من الخشب القديم الذى يتأرجح بداخلها والحنفية بها ماء.

تبولنا وجلسنا على الكنبة متجاورين ودخنا السجاير، ثم خرجنا ودرنا حول البيت ورحنا نتفحصه ورأيت فى جداره الجانبى نافذة خشبية مقفولة واستغربت لأننى لم أرها وأنا فى

الداخل ووقفنا أمام المدخل، ثم صعدنا وتوفيق جلس على العتبة العالية وأنا دخلت أحضرت الخيار ورأيت النافذة وهى مغلقة فعلاً من الداخل.

-13-

عندما جاء الأولاد لزيارتنا كنا فى مثل هذه الأيام من ديسمبر ورأس السنة الميلادية على بعد أيام وهم كانوا مستعدين للاحتفال به معنا فى البيت؛ لأنه كان يوافق يوم زواجى وأمهم. وأنا كنت أجلس على المقعد وحفيدتى الصغيرة بين ساقى وأخبرتهم أننى وتوفيق وحمادة وجونيور كنا فى مثل هذه الليلة نستأجر بيتًا كاملاً فى المساكن الشعبية ونعد المأكولات والمشروبات وأدوات التدخين والموسيقى ونظل إلى ما بعد منتصف الليل، ثم نخرج نمر على بقية الأماكن التى نعرف أن لنا بها أصدقاء يسهرون وكنا نفتح عليهم الباب ونفاجئهم وهم يغنون ويضحكون أولادًا وبناتًا ويستقبلوننا بالقبلات؛ لأننا لم نلتق معهم منذ رأس السنة الماضية، ثم نخرج جميعًا؛ لكى نفاجئ شللاً أخرى فى أماكن أخرى ونتجمع ونمشى ونلتقى بأفواج من الأولاد والبنات يملئون الشوارع ويرتدون الطراطير

اللامعة، وتكون القاهرة غارقة فى الأضواء والزينات وبابا نويل يجلس فى مداخل المحلات أو وراء واجهات العرض الزجاجية التى تعكس كل شىء، ونكون نحن تقطعت أنفاسنا من الضحك ونحن نواصل المشى، وتكون رءوسنا عارية تحت وابل المطر ولا نهتم.

وزوجتى قالت:

" إنت بتحكى لهم عن إيه؟ ".

قلت:

" أبداً "

ودخلت الحجرة الأخرى وجلست وحدى حتى جاءوا وقالوا:

" تصبح على خير يا بابا ".

وقربوا وجه حفيدتى من وجهى وقالوا:

" بوسه لجدو ".

وأنا قبلتها وقلت:

- مع السلامة.

وسمعت الباب وهو يغلق.

-14-

جلسنا على عتبة البيت الخارجية العالية وأكلنا الخيار ونحن نتفرج على المساحة الخالية أمامنا. بعد ذلك قمنا وألقينا نظرة أخيرة من الداخل وأغلقنا النور وباب دورة المياه وانصرفنا والنهار فى آخره. توفيق قال إننا سنلتقى ليلاً فى المقهى، وفى الغد نأخذ معنا خليل المحامى، ونذهب إلى الحاج سلامة لكى نجلس معه ونشترى البيت.

-15-

عندما عدت إلى البيت أخبرتنى أمى أن حماده سأل عنى وأنا قلت لا بد أنه سوف يأتى إلى المقهى ليلاً إن لم يكن معه موعد مع إحدى الفتيات؛ لأنه كان أكثرنا وسامة وأطولنا وصديقاته كثيرات وينتمى إلى عائلة فنية وظروفه هى الأفضل بيننا ويعيش فى ڤيلا بمنطقة راقية على مقربة الصحفيين وكان فى ذلك الوقت يكتب الروايات الرومانسية فى الكشكول والكثيرين أخبروه أنه موهوب، ولكنه كان يكتب هذه الروايات بسرعة هائلة، ويريد أن يخلص منها بأى شكل ويضيع الكشكول، ثم سرعان ما توقف عن هذه الهواية نهائيًا وانشغل

بلعب كرة اليد فى المعهد الذى يدرس فيه وتفوق فى هذه اللعبة.

-16-

عندما التقينا ليلاً انفرد توفيق بخليل المحامى وحكى له حكاية بيت عمه وأننا سوف نشتريه باسمى، ثم ننقل ملكيته فى أى وقت آخر وأنا اقتربت منهما، وهو يقول إننا سوف نمر عليه غداً؛ لكى ننتهى من الموضوع وهو استمع إلينا وقال:

" ربنا يقدم اللى فيه الخير ".

وعندما مررنا عليه فى اليوم التالى وجدناه ما زال يجلس فى الجلباب، وهو يلعب الدومينو مع سعيد عوض الله ومبسم البورى بين شفتيه . ولما توفيق قال:

" جرى إيه يا خليل إنت لسه ما لبستش ؟ ".

خليل توقف عن اللعب، وهو يخبئ الأوراق بيديه الاثنتين ورفع وجهه إلينا، وظل يتطلع فينا وهو جالس ينفث الدخان من أنفه وقال:

" بيت إيه يا عم اللى عاوزين تشتروه؟ ".

وتوفيق قال:

"جرى إيه يا خليل. قوم هات الورق. أتعابك حتاخدها يا أخى".

" إذا كان على الورق، خمس دقايق يكون جاهز ".

" طيب اتفضل قوم ".

خليل قال لا مؤاخذة يا سعدة وترك أوراق الدومينو البيضاء على اللوحة الخشبية الناعمة وقام واقفًا وهو يجذب جلبابه من الخلف ومشينا معه وانتظرناه أمام منزله وتوفيق أعطانى الخمسمائة جنيه وطلب منى أضعهم فى جيبى وأن أقول لعمه أننى تفرجت على البيت ورأيت أنه لا يستحق أكثر من أربعمائة أو أربعمائة وخمسين جنيهًا وإذا لم يوافق أعطيه الخمسمائة جنيه. ولم يمر وقت طويل حتى رأينا خليلا يخرج من الباب وهو يرتدى بذلة كاملة قديمة لونها كحلى ونظارة طبية بزجاج أبيض ويضع ربطة عنق لونها أحمر ويحمل تحت إبطه حافظة جلدية سوداء ونحن توقفنا عن الكلام وأفسحنا له وجعلناه يتقدمنا فى الطريق إلى بيت الحاج سلامة. وكانت الابتسامة اختفت عن وجهه ومشيته فى هذه الثياب مختلفة عن مشيته وهو فى الجلباب.

بلعب كرة اليد فى المعهد الذى يدرس فيه وتفوق فى هذه اللعبة.

-16-

عندما التقينا ليلاً انفرد توفيق بخليل المحامى وحكى له حكاية بيت عمه وأننا سوف نشتريه باسمى، ثم ننقل ملكيته فى أى وقت آخر وأنا اقتربت منهما، وهو يقول إننا سوف نمر عليه غداً؛ لكى ننتهى من الموضوع وهو استمع إلينا وقال:

" ربنا يقدم اللى فيه الخير ".

وعندما مررنا عليه فى اليوم التالى وجدناه ما زال يجلس فى الجلباب، وهو يلعب الدومينو مع سعيد عوض الله ومبسم البورى بين شفتيه . ولما توفيق قال:

" جرى إيه يا خليل إنت لسه ما لبستش ؟ ".

خليل توقف عن اللعب، وهو يخبئ الأوراق بيديه الاثنتين ورفع وجهه إلينا، وظل يتطلع فينا وهو جالس ينفث الدخان من أنفه وقال:

" بيت إيه يا عم اللى عاوزين تشتروه؟ ".

وتوفيق قال:

"جرى إيه يا خليل. قوم هات الورق. أتعابك حتاخدها يا أخى".

" إذا كان على الورق، خمس دقايق يكون جاهز ".

" طيب اتفضل قوم ".

خليل قال لا مؤاخذة يا سعدة وترك أوراق الدومينو البيضاء على اللوحة الخشبية الناعمة وقام واقفًا وهو يجذب جلبابه من الخلف ومشينا معه وانتظرناه أمام منزله وتوفيق أعطانى الخمسمائة جنيه وطلب منى أضعهم فى جيبى وأن أقول لعمه أننى تفرجت على البيت ورأيت أنه لا يستحق أكثر من أربعمائة أو أربعمائة وخمسين جنيهًا وإذا لم يوافق أعطيه الخمسمائة جنيه. ولم يمر وقت طويل حتى رأينا خليلا يخرج من الباب وهو يرتدى بذلة كاملة قديمة لونها كحلى ونظارة طبية بزجاج أبيض ويضع ربطة عنق لونها أحمر ويحمل تحت إبطه حافظة جلدية سوداء ونحن توقفنا عن الكلام وأفسحنا له وجعلناه يتقدمنا فى الطريق إلى بيت الحاج سلامة. وكانت الابتسامة اختفت عن وجهه ومشيته فى هذه الثياب مختلفة عن مشيته وهو فى الجلباب.

-17-

كان بيت الحاج سلامة فى مواجهة بيت شقيقه الحاج عثمان، وظللنا نطلع السلم الضيق وتوفيق يسبقنا حتى الطابق الرابع أو الخامس لا أذكر وغاب فى الداخل لفترة من الوقت ثم خرج إلينا وصاح:

" اتفضلوا ".

ونحن عبرنا الصالة الخالية ووجدنا الحاج جالسًا بحجمه الصغير على الكنبة ومائل إلى المسند وظهره شبه مفرود وفوجئت أنه نسخة طبق الأصل من شقيقه الحاج عثمان، ولكنى سمعت توفيق وهو يقول:

" إزيك يا عمى ".

والحاج رد عليه:

" إزيك يا توفيق يابنى وازى ابوك؟ ".

وخليل وضع الحافظة الجلدية على المنضدة المنخفضة ووضع ساقًا على ساق وجلسنا صامتين حتى سمعنا تصفيقًا فى الخارج وحينئذ خرج توفيق وعاد بصينية الشاى وجلس يقلب الأكواب ويقول:

" ده عبد الله يا عمى اللى كلمتك عنه ".

وعمه نقل عينيه بينى وبين خليل المحامى وقال:

" مين فيهم؟ ".

توفيق أشار بيده ناحيتى والرجل تأملنى وقال:

" هئ. وحتعمل بالبيت إيه يا افندى ".

وأنا لم أعرف أرد عليه وقال:

" اشربوا الشاى. اشربوا ".

ومد يده تناول الكوب وراح ينفخ فيه ويشرب.

-18-

عندما استنكر الحاج سلامة أن أقوم أنا بشراء البيت وقال:

" هئ "،

ثم أضاف:

" اشربوا الشاى اشربوا " .

لم أمد يدى إلى كوب الشاى ونظرت إليه، وهو يجلس بجلبابه القديم وقد طوى إحدى ساقيه تحته بينما تدلت ساقه الأخرى بقدمها الداكنة عند سطح البلغة الباهتة الملقاة على

الأرض ورغبت فى إهانته ونظرت إلى توفيق ووجدته ينظر إلى خليل المحامى ويقول:

- على فكرة يا عمى عبد الله ده كويس قوى.

وعمه قال دون أن ينظر إليه:

" ما أنا عارفه ".

وحينئذ تناول خليل حافظته الجلدية من سطح المنضدة وأخرج بعض الأوراق، وانتقل إلى جوار الحاج وغمز بعينه اليمنى وهو ينظر إلىَّ وإلى جيبى وأنا أخرجت النقود وناولتها له وكانت من فئة العشرة جنيهات؛ لأن المائة لم تكن ظهرت وخليل قال بسم الله الرحمن الرحيم وراح يعدها ورقة ورقة والحاج يتابعه بجانب عينه حتى انتهى، ثم وضعها أمامه على المنضدة وأخرج القلم وقال:

" قول لى يا حاج البيت عنوانه فين ومساحته قد إيه بالضبط وفين الورق بتاعه؟ "

والحاج أخرج بعض الأوراق من جيب الصدار، وخليل راح يكتب ويسأل والحاج يجاوبه بصوت خافت، ثم جعل الورق من نسختين ومد يده بالقلم وقال لى:

" تعالى ".

وأنا وقعت وهو وسأل الحاج إن كان يستخدم الختم، ولكن الحاج وقع وتناول النقود وضعها فى جيب الصدار الداخلى وعندما كنا ننزل السلم قلت لتوفيق:

" على فكرة عمك ده راجل حمار وانا كان ممكن أهزأه ".

وتوفيق ضحك وهو يطوى الورق ويضعه فى جيبه حتى عدنا إلى المقهى وجلسنا مع خليل، ثم جلسنا وحدنا وقررنا أن نحتفل بهذه المناسبة.

-19-

عندما اقترينا من منصف الليل ذهبنا إلى عزمى البقال على ناصية الشارع واشترينا مشروبًا عبأه لنا فى زجاجة نحيلة داكنة أغلقها بفلينة طويلة ولفها فى ورقة جريدة، وذهبنا إلى شاطئ النهر، وجلسنا وبدأنا نشرب منها مباشرة، ثم لاحظنا أنه سبرتو أحمر وطعمه خطير جداً ولا يطيقه أحد وعدنا إلى عزمى ومددت يدى بالزجاجة وقلت له:

" انت بتبيع سبرتو أحمر؟ هات الفلوس ".

وهو قال:

" سبرتو؟ ده أنضف مشروب فى البلد. بس انتو اصبروا عليه شويه ".

وأنا صحت فيه:

" هات الفلوس يا عزمى ".

وهو خاف وقال:

" خلاص خلاص ".

لأنه كان يبيع ويسمح بالشرب أمام المحل من دون تصريح رسمى وأسرع إلى الدرج أحضر الفلوس، ونظر إلى الزجاجة المفتوحة وقال:

" فين الفلة ؟ " .

ونحن لم نرد عليه واتجهنا إلى شارع السوق وابتعنا ربع قرش من المخدرات وذهبنا إلى الغرزة التى كانت عند سور نادى ناصر الرياضى، ويوجد مكانها الآن رجل عنده كومة من البطيخ وبالليل ينام على الخيش المفروش أمامها. دخلنا وجلسنا ندخن، ومعاون المباحث دخل من الباب الجانبى، والمخبرون من الباب الرئيسى والمعاون صاح:

" ولا حركة. أقف يا واد انت وهو ".

وبينما كنا واقفين توفيق فتح يده وترك قطعة المخدر تقع إلى جوار قدمه التى بينه وبينى والمعاون جعلنا نتحرك عن

أماكننا وراح يفتش الأرض وانحنى التقطها وشمها وخاطب توفيق لأنه الأطول وصاح:

" جايبها منين يا واد؟ ".

وتوفيق تطلع إليه ولم يرد.

" باقولك جايبها منين؟ "

وبينما كان المخبرون يحملون الشيش والأكواب ويلقون بها وتتكسر على أسفلت الميدان وتلم علينا من كان صاحيًا من الناس رفع المعاون يده وصفع توفيق على خده صفعة قوية طرقعت داخل وخارج الغرزة:

" باقولك جايبها منين يا واد ؟ "

وأغرورقت عينا توفيق وأشار بأصابع يده المدلاة بينى وبينه إشارة جانبية خفيفة، وقال:

" أبدًا والله. ده عبد الله هو اللى كان مشتريها وقال لى تعالى نشربها سوا "

والضابط تطلع إلىَّ وضحك بصوت عالٍ وقال:

" دى حنة. بتحششوا حنة يا بهايم يا ولاد...؟ ما اشفكوش الناحية دى تانى ".

ونحن انصرفنا مطأطئى الرؤوس ولكن على عجل.

-20-

الله يرحمك يا توفيق.

ظللت لسنوات كلما سهرنا مع بعض الأصدقاء فى بيت أو مقهى أحكى لهم ما كان قد جرى فى الغرزة وأقول:

" وبعدين توفيق شاور على وقال لمعاون المباحث إن عبد الله هو اللى اشتراها وقال لى تعالى نشربها ".

فى البداية كان يفاجأ ويشعر بالحرج، ثم يكتم ضحكته ويرمقنى بجانب العين التى تكون ناحيتى، وأنا كنت أفهم أنه يطلب منى ألا أقول أبدًا أن المعاون ضربه بالقلم، وأنا لم أقلها أبدًا.

-21-

لا بد وأننا التقينا مع بقية الأصدقاء وجعلناهم يعرفون عنوان البيت الصغير ويتفقدونه من الداخل بعدما تفقدوه من الخارج. توفيق قال إنه سوف يتركه للظروف وأطلقنا عليه اسم (استراحة المطار). مع الوقت صار جونيور هو الذى يبات فيه لأن والده كان ذهب زمان إلى إنجلترا للحصول على الدكتوراه

وحصل عليها بعد ما تزوج سيدة إنجليزية وأنجبوه هناك وأطلقوا عليه اسم محمد ودللوه باسم جونيور، ثم عادوا إلى مصر وبعد زمن ماتت الأم الإنجليزية والدكتور تزوج سيدة مصرية وأنجب منها أولاداً آخرين، أساءت هى معاملة جونيور وهو لم يعد يذهب إلى البيت رغم تعلق أشقائه من الأم المصرية وإعجابهم به. عندما تعرفنا عليه عن طريق حماده هلال كان طالبًا فى كلية العلوم وكان إذا زار أى واحد منا ووجد بالبيت آلة معطلة لا ينصرف قبل أن يصلحها كما كان يعبث بأصابعه فى أى قفل مغلق ويفتحه من دون مفتاح ويجلس فى البيت الصغير ويتمرن على آلة الساكس لمدة أسبوع أو عشرة أيام مما يؤهله لكى يكون عازفًا جيداً لهذه الآلة ويعمل ضمن فرق ملاهى شارع الهرم ويدعونا نذهب إلى هناك ونتعرف على العاملين ونأكل ونشرب ونراه وهو يعزف ونعود آخر الليل وعندما يمل الساكسفون يتمرن بضعة أيام على آلة أخرى وينتقل إلى ملهى آخر ونحن كذلك. كان ابن بلد أبيض اللون ووجهه الوسيم مشرب بالحمرة ولا يكف عن الابتسام وشعره كستنائى طويل ومفرود إلى الوراء ويحدثنا عن المراسلات التى لا تنقطع بينه وبين أخواله وخالاته الإنجليز الذين كانوا يدعونه للسفر والعيش معهم. كان قام بمحاولة من سوريا؛ حيث السفر

بالبطاقة الشخصية وودعناه لكى يهرب من هناك إلى لندن والسوريون قبضوا عليه وأعادوه إلى مصر ونحن ذهبنا إلى المحكمة ورأيناه فى القفص والقاضى حكم عليه بستة شهور سجن مع وقف التنفيذ. فى تلك الأيام كان استأجر حجرة أرضية فى إحدى حوارى الترجمان وكنا نذهب ونسهر هناك على الحصيرة الصفراء التى لسعتها جمرات النار من الناحية التى هناك وتركت فيها حروقًا صغيرة سوداء، كما كنا نخلع الأحذية ونجلس على الحشية الجانبية المفروشة.

–22–

بعدما تزوج توفيق لم نعد نلتقى إلا قليلاً. مرة، بعد حادثة الغرزة بسنوات، رحنا نمشى مثل زمان فى شوارع المدينة حتى انحرفنا إلى طريق جانبى وفوجئنا بأنه مسدود بسرادق صغير، والجالسون فى مقدمته هبوا لاستقبالنا ونحن لم نجد مفرًا من التقدم ومصافحتهم متمتمين بالكلمات المناسبة، وما كدنا نجلس حتى دخل رجلان وجلسا، وقبل أن ينتهى المقرئ من الربع الذى يقرؤه قام توفيق وصافح الوقوف على عجل ولما لحقته وأنا غاية فى الحرج وسألته:

" إيه يا جدع ده؟ "

قال:

- " مد. مد ".

وأسرع بالانحراف إلى الطريق الآخر وأضاف:

" أنت مش واخد بالك من الاتنين اللى دخلوا؟ "

" مالهم؟ ".

" فاكر معاون المباحث، بتاع الغرزة؟ ".

" ماله؟ ".

" اللى دخلوا دول هم المخبرين اللى كانوا معاه لما مسكنا "

" لأ يا راجل؟ ".

" أيوه ".

وذهبنا إلى المقهى وجلسنا نتحدث ونضحك قبل أن يتركنى ويعود إلى البيت.

-23-

كان الأولاد فى زيارتنا والتليفزيون مفتوح وحفيدتى الصغيرة تدعك وجهها بنصف البرتقالة لما تناولت سماعة التليفون. لاحظت أنهم توقفوا عن الكلام وراحوا يتابعوننى بعدما

وجدونى قلت كلمتين أو ثلاث أول المكالمة، ثم أتوقف طول ما كانت السماعة على أذنى. وعندما وضعتها تطلعوا إلى صامتين وقلت لهم إن هذه ابنة صديق قديم كانت تخبرنى برحيله. وبعد فترة عدت وقلت لهم إنهم لا يعرفونه وأمهم أيضًا لا تعرفه. وأمهم قالت إنها سمعت باسمه فقط ولكنها لم تره. ويبدو أنهم احترموا مشاعرى حتى وجدونى ألاعب البنت وواصلوا كلامهم، وأنا شعرت بالأسف أن أحدًا منهم لم يعرفه ولم يلتق به، ولم تعد هناك فرصة أبدًا لتدارك الأمر.

–24–

كانت البنت قالت إن ما جرى كان جرى وهو يمشى فى الشارع. وأنا رحت أفكر وأقول لنفسى هل كان يمشى عائدًا إلى البيت وشعر فى صدره بألم مثل الذى أشعر به وأضع له حبة تحت لسانى وأتوقف حتى ينتهى ثم أكمل على مهلى؟ هل شعر بمثل هذا الألم ولم تكن معه حبة يضعها تحت لسانه ولم يستطع المشى، فجلس على الرصيف، ثم اشتد عليه حتى ضاق صدره واستلقى على جنبه وانتهى الأمر؟ أم أنه وقع مرة واحدة من دون ألم؟ وهل حصل ذلك قريبًا من البيت والناس عرفته

وحملته إلى هناك؟ أم أنه كان بعيداً والناس فتشت جيوبه وعرفت العنوان من البطاقة وحملوه إلى الطابق الرابع أو الخامس ونادية بهدلت الدنيا هى والبنتين؟ أم أن الأمر جرى على نحو آخر تماماً.

- 25 -

شعرت فجأة أننى بحاجة لأحد يعرف توفيق؛ لكى أتحدث معه كما شعرت بأننى أفتقد لأحد يشعر نحوى بشىء من التعاطف لأن ما جرى لتوفيق ليس سهلاً. سوف أذهب فى أقرب وقت لعزاء نادية. لا بد وأنها صارت امرأة عجوز الآن. كنت أراها أيام خطبتهما، ثم انقطعت عن ذلك بعدما تزوجا واستقرا فى بيت الأسرة على أمل الانتقال إلى أحد المبانى التى يقوم توفيق ببنائها وبيعها لبناء غيرها. كانوا يريدون أن يزوجوه فتاة أخرى من الأسرة ولكن توفيق أحبها . تذكرت كيف قام بتدابير مدهشة لكى يضحك بها على الحاج عثمان بحيث إنهم فى الزيارات المتبادلة كانوا يلتقون بنادية غيرها، ولما حضرت مرة رأيتها جالسة وهى مغطاة وتتكلم همساً، وهى تنظر إلى الأرض وساعة الضحك تبتسم ولا تضحك، وما أن يغادروا حتى

تعود نادية المرحة التى لا تكف عن الكلام. أيامها أدهشنى كيف تحول إلى داهية فى إدارته لهذه المسألة، وكيف صار على هذا القدر من الإصرار، الشجاعة التى جعلته صامتًا أغلب الوقت ومبتسمًا ومدلهًا وهو يتحدث عن نادية وتصورت أن الحكاية لن تنتهى على خير وربما يظن الحاج أننى مسئول عن هذه الخدعة خاصة، وهو يرتاب فى ويعرف أننى علمت ابنه تدخين السجاير وكان توفيق يخبرنى أنه يؤنبه ويقول:

- بقى عيل أصغر منك، يعلمك الدخان ؟.

أيام خطبتهما صار يختفى ويمر فجأة على البيت أو المقهى وأعرف أنه كان على موعد معها. صار يثق بآرائه المقتضبة كأن يقول مثلاً:

" لا. لا. إنت تقابله وتقول له إنك صرفت نظر.

وأصبح ويرتدى كل يوم ثيابًا غير الأخرى تشبه تلك التى يرتديها الأجانب الذين يعمل معهم فى نادى الجزيرة. وتخيلته أمامى بفانلته الصوفية الخشنة التى كان تعجبينى بلونها الأحمر القانى وأكمامها نصف الكم فى عز الشتاء على البنطلون الجبردين الكاكى الذى من دون الكُسر الأمامية والمحبوك على جسده النحيل الممشوق، وفى قدميه حذاؤه

الإنجليزى بلونه البنى المحروق ووجه العريض المنقوش ونعله المفتوح وهو واقف يميل برأسه، وقد رفع ذراعيه وأحاط بكفيه حول عود الكبريت المشتعل أمام طرف السيجارة ومحفظته منتفخة قليلاً فى جيبه الخلفى. تذكرت كيف كنت أحاول أن أفعل ذلك، والهواء يطول العود بين كفى وينطفئ بينما يبتسم هو ويتناول منى علبة الكبريت ويدارى الشعلة بكفيه بإحكام حتى نشعل سجائرنا ويضحك وهو ينفخ العود ليطفئه ويلقى به مزهوًا وقلت لا حول ولا قوة إلا بالله، واستغربت.

-26-

كنت أريد أحدًا يعرف توفيق ويعرفنى فى الوقت نفسه، لذلك رأيت أن أذهب إلى عزاء نادية التى لم أرها منذ سنوات. ووقفت ألبس البنطلون وأنا أمسكه أمامى بيدى الاثنتين، وكلما رفعت ساقى اليمنى لكى أدخلها فى رجله أجد أن خياطة الحافة السفلى لهذه الرجل قد احتجزت ظفر إصبعى الكبير ومنعت رجلى من الخروج وأجدنى أتمايل وأوشك على السقوط، ولكننى أتمالك نفسى بصعوبة وأسرع بسحب ساقى مرة أخرى. والولد رآنى وقال:

" يا بابا قلت لك ابقى البسه وأنت قاعد ".

ثم أضاف أنه - شخصيًا - يفعل ذلك. وأمه قالت:

" الله. ما تسمع كلام الواد ".

وأنا قلت:

" واد إيه اللى اسمع كلامه ".

ووقفت قليلاً بالسراويل الداخلى والبنطلون بين يدى؛ ثم اتجهت على مهلى إلى الحجرة الأخرى، وجلست فى الركن الذى لا يرانى فيه أحد ولبست البنطلون مطمئنًا وقلت لنفسى إن المسألة ليست لعبة؛ لأن الرجل الكبير إذا سقط ربما لا يستطيع القيام مرة أخرى.

-27-

كانت نادية شابة نحيلة دقيقة الملامح وجسمها متناسق ولها وجه خمرى ومشرب بالحمرة وتبتسم دائمًا ولا تهدأ. هكذا رحت أفكر وأنا أتطلع من نافذة السيارة . فى أيام الآحاد كان يذهبان إلى هنا أو هناك. بعض الأوقات كان العشاق الصغار يجلسون مساءً على أحجار السور الخلفى لحديقة الأندلس وفوقهم تتدلى الأغصان المتشابكة وتدارى وجوههم، أما

الآخرون فقد كانوا يتمشون فى الشارع المرصوف ، وفى الضوء الخافت كان باعة السميط والمثلجات وأكواب الشاى يتخذون مواقعهم عند حافة النهر المكشوف أمامهم.

كنا اتفقنا أن أذهب ليلاً إلى هناك وأمشى فى الشارع لا ألوى على شىء، وحينئذ سوف يلمحنى توفيق وينادى علىَّ ويعلن عن مفاجأته بوجودى فى هذا المكان ويقدم كل منا للآخر وبعد ما أراها يكون على أن أتركهما وأنصرف. وأنا اعتنيت بثيابى ومشيت فى الشارع وسمعته وهو يصيح " عبد الله " ويأتى على مهله لملاقاتى فى منتصف الشارع بينما لحقته هى متهللة وراحت تصافحنى. أصرت على جلوسى معهما بينما وقف توفيق يبتسم ولا يتكلم وأنا اعتذرت لأنني على لقاء ببعض الناس أو الذهاب إلى مكان ما لا أتذكر، المهم أننى اعتذرت لسبب من الأسباب. بعد ذلك تقابلنا كثيرًا.

فى البداية كان الحاج متوجسًا منها. أم توفيق أحبتها وهندية شقيقته وأخته المتزوجة أحبوها. الأمر الذى زاد الوضع سوءًا أنها أنجبت بنتين. كانت نادية ألحقتهما بمدرسة أجنبية

وهو يتنصت عليها تراجع دروسهما فى لغة لا يفهمها، ويرى البنتين سواء أكانا فى ثياب المدرسة أم فساتينهما القصيرة الملونة وهن يستقبلنه وقد انتصبت على جانبى وجه كل واحدة ضفيرتان قصيرتان ويشعر بالذهول وهن يستقبلنه ويصرخن " جدو .. جدو " ويتعلقن برقبته ويجذبن شاربه وعمامته، كانت نادية تتركهما بينما يسرع توفيق بتخليصه منهما، ثم يمسك يدى ونبتعد بينما يروح الحاج يعيد لف عمامته بصبر فارغ. بعدما كبرت البنتين صارتا فرحتين به يحتضنه ويقبلنه على وجنتيه وبعد ما يفعلن يظل زمنًا يجلس على الكنبة هو ينظر إلى الأرض لا يتكلم ولا يرفع عينيه نحوهما أبدًا.

والحاج عثمان لم يكن يقيم أى اعتبار للآراء التى كان توفيق يقولها فى أى شأن من شئون العائلة، ولكنه مع الوقت صار يثق بنادية ويقدر ما تقوله تقديرًا هائلاً. لم تكن تهابه وتعامله معاملة الند وتتطوع بإبداء رأيها فى أى من مشكلات العائلة التى تثار أمامها. كأن تقول مثلاً: " والله أنا رأيى أنكم إذا وافقتم تدفعوا له المبلغ الذى طلبه، فإنه لن يشبع وبعد أسبوع سوف يطلب غيره ". وكان الحاج يسمعها ويدفع المبلغ الذى طلبه ولا يمر أسبوع حتى يفاجأ بأن الرجل محل الكلام لم

يشبع وجاء يطلب غيره. وما أن تكرر هذا الأمر حتى تحولت نادية فى نظره إلى أعجوبة حقيقية ومحترمة، وأن السماء أرسلتها له فى هذا الوقت بالذات.

-29-

كان سائق التاكسى يعاكس النساء بصوت عالٍ كلما تمهل بسبب الزحمة. وكان سألنى إن كنت أعرف المقدم فلان والرائد فلان وقلت إننى لا أعرفهما وقال إنهما أصدقاؤه ويلتقون بالمقهى فى السيدة عائشة، ثم أخرج الموبايل ووضعه على أذنه وراح يقول تحت أمرك يا باشا. وعندما توقفنا مددت يدى إلى جيب سترتى وأنا أميل ناحيته. كنت أعرف أن به ثلاث ورقات، خمسين وعشرين وعشرة. تحسست الورقة الكبيرة وناولتها له وعدلت جانب السترة ثم التفت ورأيته يرفع يده، وفيها جنيه واحد بدلاً من الخمسين، ويتطلع إلىَّ مستفسرًا بدماغ حليق وابتسامة وقحة. وأنا دهشت وفكرت وأخرجت الورقتين وأعطيته العشرين، ولكنه قال:

" لأ. ثلاثين ".

أعطيته العشرة الأخرى وفتحت الباب ونزلت.

-30-

كان مدخل المدينة مزدحمًا بعشرات من مركبات التوك توك التى تتقدم مثل الصراصير الكبيرة بين حشود الناس الذين يتزاحمون فى كل اتجاه وهم مستغرقون لا يلوون على شىء.

مشيت على مهلى وأنا أفكر فى هذا الموقف الغريب الذى حدث فى التاكسى. أنا متأكد أن هذا الجنيه لا يخصنى أبدًا، ثم أننى لمحت الخمسين جنيهًا وأنا أعطيها له. مؤكد أن هذا السائق يحتفظ بجنيه فى يده وإذا جاءت فرصة أثناء الحساب فإنه يرفعه بينما يكون قد أغلق كفه على الورقة التى أعطاها له الزبون. هذا ما حدث فعلاً؛ لأنه رفع الجنيه أمامى وهو يمسكه من طرفه بين إبهامه وسبابته المضمومة إلى كفه مع بقية الأصابع. كيف لم أطلب منه أن يفتح يده وأيقنت أنه نصاب محترف راح يحدثنى عن الرتب التى يعرفها؛ لكى يربكنى ثم هذه المكالمة المزعومة التى أجراها وتمنيت أن أكون مخطئًا لكى أشعر بالارتياح ثم قلت لا يمكن، ورأيتنى أصادفه مرة أخرى وأركب معه مبتسمًا ثم أطلق الرصاص على رأسه الحليق أو أطعنه بالسكين فى جنبه الأيمن وأغادر التاكسى وأتركه. وبما أن أحدًا فى البلد لا يدرى بما يدور حوله فقد

يظل جالسًا هكذا عدة أيام قبل أن يكتشفوه وأكون أنا موجودًا فى البيت مشغولاً فى أى شىء آخر.

-31-

كان فضل الله عثمان أمامى مثل عجوز أصابه الإعياء والتراب وتبدلت ناسه. وقلت فى نفسى إنك هنا الآن لا تعرف أحدًا ولا أحد يعرفك. ووضعت يدى فى جيبى الآخر ووجدت النقود التى سوف أعود بها إلى البيت وتساءلت إن كانت نادية ما زالت حلوة أم تغيرت ونظرت مرة أخرى واتجهت إلى حارة الصعايدة. كان بيت توفيق فى ثلثها الأيمن وأنت داخل. ووجدتنى أقف حائرًا أمام مدخلين أو ثلاثة من المداخل المنخفضة عن سطح الأرض. رحت أطل هنا وهناك وسألت واحدة أشارت بيدها إلى ناحية وقالت:

" اللى جنبنا ".

هبطت العتبة وتقدمت إلى السلم الضيق ورحت أصعد بضع درجات وأتريث. فى الطابق الرابع وجدت بابًا مفتوحًا فى مواجهتى وفى مدخله طاولة خشبية عليها بعض الحلل وامرأة

شابة ترتدى بنطلون بيجامة مقلماً، وفى يدها القريبة غطاء وفى الأخرى ملعقة تقلب بها فى حلة يتصاعد منها الدخان. وعندما لوحت بيدى لاهثًا إلى الطابق الأعلى قالت:

"بايته هى والبنات عند أختها " .

واتسعت ابتسامتها وأضافت:

" اتفضل " .

نزلت وأنا أقول لنفسى كيف تخرج نادية تبات عند أمها فى مثل هذه الظروف؟ وكيف تضحك هذه الجارة بينما توفيق توفى فى الشقة التى فوقها. وتساءلت إن كان معنى هذا أن توفيق رحل منذ زمن طويل ونادية تذكرت الصداقة التى تربطنا وقالت لا يصح أن لا نخبر عبد الله ولذلك طلبت من ابنتها أن تخبرنى. وخرجت إلى الحارة وأنا غير قادر على التأكد من هذا الأمر أو ذاك. وعند الناصية التقيت مع فتاتين طويلتين فى ثياب سوداء ونظارات سوداء وبينهما امرأة عجوز ضئيلة الحجم يتقدمن داخل الحارة. وانتابنى الشك قليلاً، ونظرت من عند الناصية ورأيتهن يدخلن البيت الذى غادرته قبل لحظات. إنها نادية والبنتان، وانتبهت أن وجه المرأة العجوز الذى لمحته

لم يكن غريبًا وانتابتنى رجفة، واستندت بيدى إلى الجدار القريب، ثم أغلقت سترتى ومشيت فى طريقى إلى البيت.

-32-

أثناء عودتى إلى البيت فكرت فيما جرى لى مع سائق التاكسى. واستغربت مرة أخرى من هذه الجرأة التى جعلته يفعل معى ما فعل ويستبدل الخمسين جنيهًا بجنيه واحد. لو كنت أصغر سنًا كنت سحبته من ياقته إلى الخارج ولا أتنازل أبدًا عن حقى، ثم قلت إن على الإنسان أن يكون متسامحًا بين وقت وآخر وإن كنت لن أنسى هذه الواقعة أبداً. وطلبت من هذا السائق الآخر أن يعزم علىَّ بسيجارة وهو قال:

" من عينى ".

وبعدما أشعلها لى أخبرته أنهم يمنعونى عن التدخين، ولكنى بين الحين والآخر أريد واحدة أدخنها.

-33-

رحت أدخن - إذن - وأفكر كيف صار وجه نادية الحلو هكذا ؟ لقد بدت لى وكأنها تغطى ملامحه النضرة التى

أعرفها تحت قناع من الجلد العجوز لدرجة أننى عرفتها بمشقة، وقلت هذا يعنى أننى الآخر صار وجهى فى حال يرثى لها، وحمدت الله أننى لمحتها وهى لم تلمحنى. تذكرتها عندما نام الحاج عثمان نومته الأخيرة، ووقفت أنا وتوفيق نتابع الطبيب، وهو يحاول أن يجد وريداً يحقنه فيه دون جدوى. عشرات المرات يشكه أعلى الذراع وفى ظاهر الكف دون جدوى. والحاج مال وهمس بآخر الكلام الذى قاله:

" هاتوا نادية ".

ولما خرج توفيق واستدعاها طلعت لاهثة وأفسحت لها وأنا أرى وجهها الخائف بملامحه الوردية السمراء الذى بدا لى ناضحاً بالحيوية وأجمل من أى وقت مضى. وشرح لها الطبيب ما يجب أن تفعله وهى انحنت على الحاج الذى تطلع إليها صامتاً وشكته بهدوء وسحبت قليلاً من الدماء فعلا، ثم حقنته وتراجعت بينما مسح الطبيب ذراع الحاج بقطعة القطن ونظر إليها وقال:

" شفت يا حاج عثمان؟ ما يجيبها إلا ستاتها ".

ووقفت أنا وتوفيق أمام البيت نتابع الطبيب، وهو يبتعد فى الليل ومن خلفه يمشى الحاج مرسى والحقيبة الصغيرة فى يده المدلاة. وتوفيق قال:

" بنت العفريتة. عرفت مكان العرق ".

–34–

عندما فتحت الباب لم يكن أحد بالبيت. لقد ذهبوا لحضور عقد قران فى دار الإفتاء بالأزهر. وأنا أشعر بالقلق من غرابة الوضع، ولكننى أكون مسرورًا عندما أجدنى وحيدًا وأروح أمشى فى الشقة من هنا إلى هناك بإحساس مغاير عن الإحساس الذى يكون عندى عندما يكونون موجودين. لقد بدلت ثيابى وجلست فى المقعد الكبير وفتحت التليفزيون ثم استغرقت فى النوم.

–35–

عندما انتبهت كنت ما أزال وحيدًا فى الصالة، وتطلعت إلى الساعة المعلقة على الجدار المقابل، ولم أعرف أبدًا المدة التى نمتها. فى كل مرة أريد أن أرى الوقت الذى أنام فيه، ثم أرى

الوقت الذى أصحو فيه لكى أعرف المدة التى نمتها، ولكن النوم كان يباغتنى قبل أن أنتبه وأنظر مع أن الساعة معلقة فى مكانها طيلة الوقت. هو نوم متقطع على أية حال. وأنا أحلم كثيرًا ولا يتبقى لى من أحلامى سوى صورة أو وجه أو تفصيل صغير ما أن أستيقظ حتى أمسك به وأحاول جاهدًا أن أستدعى بقيته الغائبة التى تفر منى وتنتهى. أحيانًا أتذكر حلمًا صغيرًا مكتملاً وتغمرنى السعادة بسبب من ذلك. قد أحكيه بشكل عفوى وبنوع من عدم الاهتمام لزوجتى عندما نكون وحدنا وهى عادة ما تسمعنى مبتسمة وتقول: خير.

والآن رأيتنى فى المدة التى غفوتها على المقعد الكبير أقبض على صقر قصير وممتلئ وأنا خائف من مخالبه الحادة إذ يقاومنى، ولكنى رأيته مستكينًا بريشه الناعم الذى تدرجت ألوانه البنية الفاتحة على جسده ورأسه الشبيه برأس القط الصغير بمنقاره الحاد المعقوف، وعينه القريبة الوادعة، ووجدتنى أرفع يدى عن ظهره وأفتح يدى الأخرى التى تحمله ولا يطير، بل ظل يجلس وادعًا وقد لم نفسه حتى يسعه كفى المفتوح، ثم رأيتنى وأنا ما زلت مكانى فى المقعد الكبير، أميل وأمد يدى أقربه إلى الأرض، وهو يقفز بهدوء إلى السجادة

المفروشة، ويروح يدرج بطيئًا ويتمايل على قدميه الصغيرتين كمن يعرف المكان، حتى دخل الحجرة الأخرى وغاب.

رأيت ذلك واستيقظت.

-36-

عندما عاد الأولاد من الخارج أخبرونى أن الناس كلها سألت عنى أثناء كتب الكتاب فى دار الإفتاء، وأنهم يرسلون إلىَّ بالسلام، وأنا توقفت عن المضغ وقلت:

" الله يسلمهم ".

-37-

فى الحجرة الأخرى، رحت أبحث عن الحقيبة الصغيرة التى أحتفظ فيها بالدفاتر القديمة والصور. وما أن انحنيت مرتين أو ثلاث حتى آلمنى ظهرى وجلست. رحت أتساءل كيف أن توفيق قضى عمره وهو يبنى المبانى على أمل أن يحتفظ لنفسه بشقة فى منطقة معقولة ينتقل إليها ولا يفعل إلى أن مات وهو

وهى كبيرة أيضًا، فإنها سوف تطل على هذه الناحية التى هنا، وبعدما أنزل ذراعه أضاف أن الأبواب والشبابيك من إيطاليا. وفى مرة سألنى إن كنت أذكر المعلم سيد الذى كان يجلس إلى جوارنا وقلت آه، وقال إنه بعد أن انتهى من تشطيب العمارة التى رأيتها وقف تفرج عليها، ثم عاد على البيت ومات، وغلبه الضحك ونظر إلىَّ نظرة ذات مغزى وقال إن:

" الرجل أخذ مقلب ابن كلب " .

وأنا تذكرت البيت القديم الذى عدت اليوم لزيارته، وقلت إنه لم يعد هو البيت. لأنك فى حياة الحاج عثمان لم يكن ممكنًا أن تسمع وأنت تطلع السلم ضحكة نسائية عالية تنتهى بذيل نحيل مثل التى سمعت، ولم يكن ممكنًا أن تصادفك امرأة شابة وجميلة مثل التى صادفت واقفة بذراعين عاريتين وشعر منكوش على كتفيها، وتلبس بنطلون بيجامة محبوك على جسدها إلى هذا الحد.

قبل أن يغلبنى النعاس مرة أخرى وأنا قاعد، فكرت أننى كنت أحب دائماً مثل هذه الأمور وأرحب بالنساء على هذه الحالة وانتعش بها ، ولكننى أذكرها الآن كدليل ـ فقط ـ على أن البيت الذى عدت لزيارته، لم يعد هو البيت.

بطاقة ملونة

-1-

عثرت على حقيبة اليد الجلدية المنتفخة، وراء المقعد الذى إلى يسارك وأنت داخل.

-2-

وضعتها أمامى على الكنبة الصغيرة. لاحظت أن التراب التصق بجلدها البنى الخشن، وقمت أبحث فى الشقة هنا وأبحث هناك عن قطعة قماش من التى يمسحون بها الأشياء إذا كانت متربة وأنا أعرف أننى لن أجد. كانت زوجتى تتابعنى فى ذهابى وعودتى. ولما قالت:

" إنت بتدور على إيه؟ "

قلت:

" أبداً " .

ثم دخلت الحمام وتناولت فانلتى نصف الكم من كومة الغسيل فى سبت البلاستيك أعلى الغسالة وفتحت الحنفية على ذيلها وعصرته جيداً ومررت وراء ظهرها وسمعتها تقول إن : الهدوم النضيفة فى الدولاب.

ولكنى مشيت فى طريقى إلى الحجرة الأخرى وأنا أشعر بالقرف من هذه الطريقة فى الكلام.

-3-

ما أن انتهيت من مسح جلد الحقيبة بذيل الفانلة المندى حتى توهجت فى لونها النبيذى الخشن وصارت حقيبتى القديمة التى كنت أحبها، وشعرت بالضيق من عدم عنايتى بها قبل الآن. كانت ممتلئة حتى آخرها بنسخ من رسائل كتبتها وتقارير وبطاقات أرسلها جونيور، وصور فردية لنا وأخرى تجمعنا مع بعضنا أو مع آخرين وأوراق وقصاصات شتى.

-4-

بعد محاولته القديمة الهرب إلى إنجلترا والإمساك به فى سوريا وإعادته إلى مصر والحكم عليه بالسجن مع إيقاف

التنفيذ لم يتوقف جونيور أبدًا عن المحاولة، التقى بمسئول إنجليزى، وأطلعه على جنسيته والمراسلات التى بينه وبين أخواله وخالاته الإنجليز. يقول إن المسئول وضع يده على كتفه وقال:

" لو كنت فى السودان، يا جونيور، كنت أعدتك إلى إنجلترا".

بعد أيام، أخبرنى حمادة أن جونيور موجود الآن فى الخرطوم.

وأثناء جلوسى أحد الأيام فى البيت وصلتنى بطاقة ملونة عليها صورة ساحلية من (كرونويل) جنوب إنجلترا تحمل عنوانى بالإنجليزية ومكتوب فيها بالعربية مع تحياتى. جونيور.

أعدت قراءتها وأنا أمسك بها فى يدى، كأنها لم تصلنى إلا الآن.

-5-

كانت هناك مجموعة مختلفة من الصور؛ صور له يتمشى أو يتخذ أوضاعًا فى حدائق المدينة التى يعيش فيها، وصور أخرى أمام واجهة طويلة لحانة لها مدخل صغير ملحقة برسالة كتب فيها أن ولدًا من عمره احتك به وتلاسنا وحسب تقاليد المكان دعاه إلى التلاكم خارجها والرواد خرجوا للمشاهدة وأنه

ضرب الولد ضربًا شديدًا وأسال دماءه بعدما استخدم رأسه وألقى به أرضًا والرواد صفقوا له وأنه أصبح الآن محل تقدير فى حانات المنطقة التى يعيش فيها.

–6–

كان طلب منى أن أرسل له تقارير عن كل ما يفوته من أحوال الأصدقاء. وراح بدوره يرسل لى كل ما يجرى له. إذا عمل على ماكينة كان يرسم لى خطوطها ويرسم نفسه ويحدد المكان الذى يقف فيه والشىء الذى يقوم بتحريكه أو ضغطه ودور هذا الشىء فى عملية الإنتاج التى تقوم بها هذه الماكينة. كان يرسم نفسه مستطيلاً نحيلاً له ساقان من خطين وذراعان إحدهما إلى جواره، والأخرى مرفوعة عند موضع التحريك أو الضغط، وعند طرف الآلة البعيد كومة من الأشياء التى تقوم الآلة بإنتاجها. كنا نراه ونضحك كأنه معنا.

–7–

آخر مرة، ربما، كنت ذهبت أنا وتوفيق وحمادة إلى الحجرة الأرضية التى استأجرها فى الترجمان. كنا تسللنا أول الليل

ونظرنا من الباب الموارب إلى الحجرة شبه المعتمة. كان يجلس على الحصيرة، ويركن ظهره إلى الجدار الجانبى، ويحيط جوزة الهند بكفيه أمام ركبتيه المفتوحتين وطرف الغابة فى فمه، وأمامه كانت الفتاة السمراء التى تلاحقه فى كل مكان بعينيها الوديعتين. كانت منحنية تمسك بورقة مقواة وتهُّوى على منقد الفحم الموجود بينهما والدخان يعمل سحابة خفيفة بيضاء تحيط بها، وتتوزع فى شبه العتمة المحيطة. كان شعرها يخفى وجهها من هذه الناحية، بينما انعكس وهج الفحم على وجهه المائل وزاده احمرارًا.

ضرب الولد ضربًا شديدًا وأسال دماءه بعدما استخدم رأسه وألقى به أرضًا والرواد صفقوا له وأنه أصبح الآن محل تقدير فى حانات المنطقة التى يعيش فيها.

-6-

كان طلب منى أن أرسل له تقارير عن كل ما يفوته من أحوال الأصدقاء. وراح بدوره يرسل لى كل ما يجرى له. إذا عمل على ماكينة كان يرسم لى خطوطها ويرسم نفسه ويحدد المكان الذى يقف فيه والشىء الذى يقوم بتحريكه أو ضغطه ودور هذا الشىء فى عملية الإنتاج التى تقوم بها هذه الماكينة. كان يرسم نفسه مستطيلاً نحيلاً له ساقان من خطين وذراعان إحدهما إلى جواره، والأخرى مرفوعة عند موضع التحريك أو الضغط، وعند طرف الآلة البعيد كومة من الأشياء التى تقوم الآلة بإنتاجها. كنا نراه ونضحك كأنه معنا.

-7-

آخر مرة، ربما، كنت ذهبت أنا وتوفيق وحمادة إلى الحجرة الأرضية التى استأجرها فى الترجمان. كنا تسللنا أول الليل

ونظرنا من الباب الموارب إلى الحجرة شبه المعتمة. كان يجلس على الحصيرة، ويركن ظهره إلى الجدار الجانبى، ويحيط جوزة الهند بكفيه أمام ركبتيه المفتوحتين وطرف الغابة فى فمه، وأمامه كانت الفتاة السمراء التى تلاحقه فى كل مكان بعينيها الوديعتين. كانت منحنية تمسك بورقة مقواة وتهُّوى على منقد الفحم الموجود بينهما والدخان يعمل سحابة خفيفة بيضاء تحيط بها، وتتوزع فى شبه العتمة المحيطة. كان شعرها يخفى وجهها من هذه الناحية، بينما انعكس وهج الفحم على وجهه المائل وزاده احمراراً.

نــور على المــاء

-1-

صـوره فى الحقيبة أقل مما توقعت. بعدما تزوج أقام معملاً للتحميض فى جزء من مطبخه. ولما احترق المطبخ والمعمل طلب منى أن أرسل له ما أستطيع من الصور القديمة التى أرسلها لأنها لم تعد عنده. كانت كلها بالأبيض والأسود، وأنا أرسلتها له بعدما استبقيت عددًا قليلاً له وزوجته وولديه. كانت فى يدى الآن واحدة كبيـرة لامعة ومثنية الأطراف. كان يجلس فيها بركن الكنبة فى صالة مسكنه بينما استلقت السيدة زوجته، وقد أراحت رأسها فى حجره وساقاها المثنيتان عاريتان تمامًا. كانا يضحكان ويواجهان الكاميرا. وأنا لما عرضت الصورة وغيرها على العائلة لأنهم يحبونه جدًا تفرج أبى، رحمة الله عليه، ورأى جونيور والزوجة عارية الساقين وناولها لى وهو يلقى نظرة أخيرة يوضح لى متمهلاً:

" خلى بالك، أصل دول ما بينكسفوش ".

-2-

تناولت صورة أخرى كان يقف فيها وسط خمسة من عمال المناجم. كان كل منهم يمد ذراعيه على كتفى الآخر، ويتطلعون إلى الكاميرا ويضحكون بوجوههم وثيابهم الملوثة، وهم يرتدون الأحذية ذات العنق الطويل والأحزمة العريضة، وعلى رأس كل منهم غطاء معدنى طويل فى مقدمته مصباح مستدير.

-3-

كتب تقريرًا مرفقًا بالصورة، لم أجده بالحقيبة، الأمر الذى جعلنى أدرك أن يدًا ما عبثت هنا ولم تعد كل شىء إلى مكانه. المهم أنه حكا كيف حدث،مرة، أن كان هناك منجما قديما تحت قاع المحيط. وكانت الشركة المالكة حفرت نفقًا تحت هذا القاع يمتد لمسافة طويلة حتى يقوم العمال بالتوغل داخله؛ لكى يكسروا أحد العروق التى لا أذكر من أية خامة كانت، المؤكد أنها ثمينة، ثم ينقلون هذه الكسور الصغيرة على العربات إلى الشاطئ. وعندما كانوا يحفرون هذا النفق الممتد حدث خلل لا يتجاوز السنتيمترات فى زاوية الحفر

بحيث إن سقف النفق مع التقدم راح سقفه يقترب من قاع المحيط إلى أن جاءت اللحظة التى انهار عند النقطة الأضعف، والواقفون على الشاطئ استقبلوا الجثث ومعدات الحفر مع الماء الذى اندفع.

-4-

لم تستسلم الشركة لما جرى. جاءت باخرة كبيرة ووقفت بعيدًا وراحت تصب الخرسانة حتى سدت الفجوة التى أحدثها ضغط الماء، ثم شفطوا هذا الماء من النفق حتى أصبح فارغًا تمامًا، بعد ذلك قاموا بحفر نفق آخر تحت النفق القديم ولكنه أعمق كثيرًا بزاوية مضبوطة. بعد ذلك حفروا ممرات بين هذا النفق الجديد؛ لكى يتسلقوا منها إلى النفق القديم ويكسروا العرق الذى يريدونه ويلقون بهذه الكسور عبر هذه الممرات، ويحملونها على العربات الصغيرة التى تأخذها إلى شاطئ المحيط، وهم عندما انتهوا من حفر هذا النفق وأعدوا الممرات طلبوا عمالاً جددًا، وبما أن حكاية انهيار المنجم وضحاياه شاعت فقد كان الأجر المعروض كبيرًا جدًا، وجونيور اشتغل

فيه واعتدلت أحواله. وهو كان رسم لى الماء والشاطئ وامتداد النفق القديم تحت القاع وزاوية الحفر المائلة ومكان الانهيار، ورسم الباخرة التى سدته مثل صندوق صغير له عدة قلاع، وتفريغ النفق القديم من الماء، ثم النفق الجديد الأعمق، ورسم سلالم الممرات بين النفقين والعرق الذى يكسرونه، كما رسم العربات مثل مستطيلات صغيرة محملة بالأحجار، وعند مدخل المنجم رسم نفسه وقد تحولت ساقاه وذراعاه إلى خطين وكان يضع هذين الذراعين فى وسطه، والمصباح المدور بمقدمة غطاء الرأس الصلب مضاء، ويرسل نوره فى خطوط متقطعة بعضها قليل، وبعضها كثير يمتد على الماء.

غريب الدار

-1-

بعدما انتهيت من الفرجة على صورة جونيور بثياب المنجم وضعتها جانبًا وتركت بقية محتويات الحقيبة التى أفرغتها على الكنبة الصغيرة. غادرت مكانى وعبرت الصالة إلى المطبخ والبنت الصغيرة قالت " جدو " وزوجة ابنى سألتنى إن كنت أريد شيئًا وقلت لا ودخلت المطبخ؛ حيث وضعت الماء فى السخان الكهربائى، وأعددت الكوب الزجاجى بأذنه الواحدة وحبتين من السكر الدايت، ثم فتحت الخانة العليا من النملية وتناولت علبة الشاى " الإيرل جراى " الإنجليزية التى أخبئها دائماً وراء علب التونة والسردين وأخرجت عبوة بخيط وخبأتها مرة أخرى. لو عرفوا مكانها تنتهى فى أيام.

أثناء خروجى من المطبخ تطلعت زوجة ابنى ورأت البطاقة مدلاة إلى جانب الكوب فى طرف الفتلة الرفيعة وقالت:

" إنت عملت يانسون يا بابا ".

وزوجتى قالت:

" لأ. ده شاى مستورد، مخبيه فى النملية ورا اليانسون ".

وأنا واصلت طريقى عائدًا دون تعقيب.

شىء سيئ جدًا.

-2-

وضعت الكوب على رخامة الطاولة الصغيرة، وتناولت صورة أخرى. الصور كلها بالأبيض والأسود. وكانت هذه واحدة لمجموعة من موزعى البريد الشباب يجلسون فى الشمس أمام مقهى عبده السروجى صاحب أغنية " غريب الدار " الذى كان هناك فى صدر الشارع الصاعد بين المبنيين الكبيرين: البريد والمطافى. كنا نغادر البوابة الكبيرة المفتوحة صباحًا؛ حيث نتجه يمينًا ونمر بشارع صندوق الدين؛ لنتناول الإفطار عند اللبان القريب للمقهى. كان يقدم وجبة معروفة عبارة عن رغيف فينو طويل وكوب كبير من الحليب الساخن وطبق من القيشانى به أصابع ملفوفة من القشدة الطازجة. لا أذكر الآن عدد القروش التى كانت تكلفنا، ولكنها كانت قليلة. بعدها ننتقل إلى مقهى

السروجى نشرب الشاى عند صورته المعلقة بوجهه النحيل وعينيه المدورتين. ندخن ونتكلم.

-3-

كان عندى صورة لثروت كأنها أخذت بالأمس. كنت معجبًا به وشعره الكثيف بلونه شبه الفضى الذى كان يفرقه من الجنب ويجعل له مقدمة عالية. كان يعطى جانبه للكاميرا بينما يميل بوجهه ليواجهها بابتسامة عريضة وعينين متألقتين. ياقته مفتوحة عن قميص وكرافتة. كانت صورة أخاذة وتجذب عينيك على الفور وعليها كلمات عن الذكرى التى هى ناقوس يدق فى عالم النسيان. منذ سنوات قليلة فوجئت به يتصل بى ويطلب مقابلتى " نفسى أشوفك ". ما أن ذكرنى بنفسه حتى هب أمامى بهذه الهيئة التى أعرفها. وعندما التقينا وقفت أستنكر ما أراه أمامى دون أن يظهر على. كان يلهث بكرشه البارز وقد بدت دماغه مثل كرة ضخمة فى لون قلقاسة ممتلئة بالتجاعيد ولا توجد بها شعرة واحدة. لم أجد فيه أى شىء من ثروت صديقى الذى كنت أعرفه.

-4-

أنا من ناحيتى كنت أشرب شاى " الإيرل جراى " الإنجليزى وأنا قاعد على الكنبة ولا أوافق أبدًا أن يترك الواحد نفسه للأيام تقطع الصلة بينه وبين ما كان عليه مثلما فعلت مع ثروت. كل واحد لا بد وأن يتبقى له شيئ. طريقة لبسه أو كلامه، رائحة أو شىء ما زال سليمًا من جسده القديم. ثم قلت لنفسى أليس ممكنًا أن يكون ثروت فكر مثلما أفكر الآن، خاصة وقد جلس طول الوقت فى نوع من التأمل وكأنه ندم على حضوره؟ إلا أنى رجعت أقول مهما كان الأمر، لا بد وأن يبقى من الواحد شىء. وفكرت أنه ليس مهمًا أن يتقدم بك العمر، فالدنيا، والأماكن، والنساء التى أحببت، كلها تكبر معك، المهم أن لا يضيعك الكبر. وتذكرت ذلك العم الكبير محمود الذى عاصرته لسنوات، تذكرت تلك الخصلة من شعره التى كان يجعلها تتدلى على جانب جبهته من الناحية اليمنى رغم خشونة هذا الشعر، وكيف رأيتها وهى تتضاءل بسبب تساقطه مع الأيام وهو حريص أن يجعلها تتدلى فى نفس المكان كما اعتاد حتى لم يبق له منها فى أيامه الأخيرة إلا شعرتين أو ثلاث، لا أريد أن أقول شعرة واحدة وهكذا مات، وهو يبدو فى نظرى نفس الرجل الذى عرفت.

ولما مرت الأيام

-1-

قبل أن نتجه للإفطار وشرب الشاى، كنت أنقل رزم الخطابات عبر المصعد الحديدى إلى عربة الميكروباص الصغيرة المركونة فى حوش المبنى الكبير، المزدحم بالعربات وأكياس الخطابات والموتوسيكلات ذات الملاحق الجانبية.

-2-

كنا نظل فى مقهى السروجى نتكلم ونشرب الشاى. وبعد ما ينتهى منصور من إفطاره مع زملائه السائقين، يأتى يأخذنى إلى حى قصر الدوبارة. كانت هذه منطقة التوزيع التى نقلونى إليها عقب حادثة المنطقة السابقة. هى من المناطق التى يطلق عليها الإفرنجية، تفرقة لها عن المناطق الأخرى الشعبية.

المنطقة الإفرنجية لا تتعدى عدة عمارات وڤيلل محدودة، لكن ما يخص عمارة واحد يتجاوز حجم ما يخص منطقة شعبية كاملة، لذلك يقوم منصور بالتوقف أمام عدة عمارات وسفارات؛ حيث نترك فى كل منها ربطة كبيرة أقوم أنا بالمرور عليها خالى اليدين. الخطابات العادية والمسجلة، بعدما أذن لى أصحابها أن أوقع بدلاً منهم، وهو الأمر الذى تسبب لى فى مشكلة استوجبت التحقيق. كنت أسقطها داخل الصناديق التى توجد غائرة فى الجدران آلرخامية على جانبى مدخل المبنى الواسع، بينما يحمل كل منها رقم الشقة، وبطاقة باسم صاحبها. أما إذا كانت ڤيلا مثل التى يستأجرها "الميجور وايز" فإنك سوف تلمح صندوق البريد الأقرب إلى دولاب صغير وهو واقف على الأرض، تحت الأغصان الكثيفة، وراء السياج الحديدى النحيل.

–3–

الأمر فى المناطق الشعبية يختلف. نادرًا ما تجد صندوقًا للبريد فى حوش أحد البيوت. يكون عليك أن تقف هناك وتصفق بيديك وتزعق بعلو صوتك مناديًا على صاحب الخطاب. هكذا كان موسى يفعل وهو يقوم بتدريبى على معرفة شوارع وحوارى المنطقة الشعبية التى كانوا أرسلونى إليها.

هناك جزء من شارع قصر العينى وشوارع تنحدر منه مثل: الموردى، وبستان الفاضل، وبستان الخشاب، وأفراح الأنجال. لا نمشى فى الشارع كيفما اتفق ولكن حسب خارطة محددة. فى المكتب نقوم بترتيب الخطابات حسب أرقام البيوت التى سوف تمر عليها على الناحيتين. خطاب المنزل رقم "٦" الزوجى فى هذه الناحية من الطريق سوف قد يتم توزيعه قبل خطاب المنزل رقم ٣ لأنه الأقرب. لا بد أن تعرف ترتيب البيوت وتقوم بترتيب الرسائل على هذا الأساس قبل خروجك من باب المصلحة. وعندما تصل إلى إحدى الحارات، عليك أن تدخل حتى منتصفها فقط. النصف الباقى سوف تدخله من الشارع الموازى للشارع الذى أنت فيه الآن. على هذه الخريطة يعتمد المفتش فى متابعة الموزع ومعرفة أين يكون بالتقريب فى الساعة العاشرة مثلاً.

– 4 –

كان يعطى الخطابات لبقالين ومكوجية يعلم أنهم يعرفون أصحابها. يصفق فى أحواش البيوت وينادى صائحًا باسم صاحب الرسالة مرات عدة. كنت فى الثامنة عشرة وأتجول معه وأضحك مع أولاد بلد وبنات فى أحواش البيوت والمسائل

ماشية. كان يشير إلىَّ ويقول إن هذا عبد الله الذى سوف يستلم المنطقة بعدى ويرحبون بى. وعندما نعود لتوزيع الدورة الأخرى التى فى المساء، كنت أراه يتجه فورًا إلى الثلاجة الخشبية العاطلة التى ركنها صاحب محل الكبابجى فى حوش المبنى المجاور، كان يفتح أحد أبوابها الخشبية القديمة ذات المفصلات النحاسية اللامعة ويضع ربطة الخطابات ويغلق عليها. فى الصباح يضم الاثنتين إلى بعضهما ويقوم بتوزيعها دفعة واحدة.

-5-

عندما انتهى تدريبى وخرجت وحدى للتوزيع، وقفت فى حوش البيت، ونظرت إلى أعلى ولم أتمكن أبدًا من التصفيق ولا الصياح باسم صاحب الخطاب. رحت أخرج من البيت إلى الشارع ثم أعود إلى البيت وأحاول وصوتى لا يخرج أبدًا. حينئذ أخذت الخطابات كلها، وخرجت إلى قصر العينى ودخلت؛ البيت حيث ثلاجة الكبابجى وفتحت باب الثلاجة الخشبى ووضعت ربطة الخطابات وأغلقت عليها، حينئذ شعرت بالخلاص، وعدت إلى البيت.

-6-

كل يوم أفتح الباب، أضع الخطابات فى الثلاجة وأنصرف. ولما مرت الأيام، وجدت الجانب الأيسر امتلأ.

خرير الماء

-1-

كان الطبيب يجلس وراء مكتبه وقد فرد تذكرة الدواء القديمة أمامه، وكان يتطلع إليها ويحرر التذكرة الجديدة، والسماعة مدلاة حول رقبته.

كنت عدلت من وضع ملابسى وجلست أمامه أتابعه، وإلى يمينى كانت الستارة المعلقة فى الماسورة الحديدية ملمومة إلى نصفها عن مساحة من سرير الكشف الضيق، وعند رأس هذا السرير كان جهاز رسم القلب موضوعًا أعلى الدولاب القصير. وأنا حدثت الطبيب قائلاً إننى، يا دكتور، كلما فتحت الحنفية، أو تناهى إلى سمعى خرير الماء، ألحت على الرغبة فى التبول، ولا أرتاح إلا إذا فعلت. وهو سمعنى وقال: لا يقلقنك مثل هذا الأمر أبدًا، لأن الشىء دائمًا بالشىء يذكر.

-2-

بما أن الشىء بالشىء يذكر، فلا بد وأن ما أتذكره الآن من دون ترتيب، هو استجابة لخرير من نوع ما. نعم. خرير يستدعى طرفًا مبهمًا من حكاية تروح تحكيها كما تشاء حتى ترتاح فتسلمك إلى خرير آخر. وأقول لنفسى مادامت الذاكرة لم تعد تسعفك فأنت أكثر حرية من أى وقت مضى. وأرانى الآن وقد أودعت ربطة الخطابات الأخيرة فى الثلاجة المعطوبة بحوش البيت وأقف على المحطة منتظرًا الترام وأنا أشعر بالقلق مما أحاط بى فى الأيام الأخيرة. كان لدى إحساس بأن الإدارة علمت بأمر هذه الخطابات المركونة، وأن هناك من يتبعنى، وعندما توقف الترام ومددت يدى أمسك بالمقبض النحاسى الأصفر فوجئت بمن يضع يده تحت إبطى ويصعد. جلس إلى جوارى وقال: على فين؟

التفت ووجدته المفتش العجوز كبير البطن فى بذلته الكاملة وقلت على الفور إننى نسيت استلام الخطابات المسجلة وعائد لاستلامها.

-3-

بعد أن ينتهى كل منا من إعداد خطاباته العادية بالطابق الأول، نهبط لاستلام الخطابات المسجلة من عند أمين فى الطابق الأرضى. هى قليلة ولكنها مهمة، وأنا لم أستلمها طول الفترة الماضية. وكان المفتش أخذنى وصعدنا من الباب الخلفى لحجرة المفتشين. كان هناك واحد آخر أخبره أننى تركت البوستة بالمنطقة، وهم طلبوا العنوان لكى يذهبوا لإحضارها حتى لا يعبث بها أحد. أعرف أن مخالفة ترك الخطابات بالشارع تستوجب الرفض فوراً. وقلت إننى لا أعرف العنوان الذى تركتها فيه ولكننى أعرف المكان. وهو اتصل لإعداد سيارة تأخذنا إلى هناك، بينما انشغل الآخر بارتداء سترته. ولما كنت فى فتحة الباب انطلقت. لم يكن بوسع أحد أبداً أن يلحقنى. فى لمح البصر كنت اجتزت الطرقة الطويلة إلى ميدان العتبة، ثم وجدتنى أجلس بالمقهى فى ميدان الكيت كات أشرب الشاى مع مستشارنا القانونى، صديقنا طالب الحقوق، فتحى حسين إبراهيم.

-4-

استدعينا توفيق وحمادة وجونيور الذين جاءوا على عجل. ولم يلبث الرأى أن استقر على قيامى باستلام الخطابات

المسجلة، ثم ذهبنا جميعًا إلى المنطقة وتوزيعها مع كل الخطابات المركونة. كانت الساعة اقتربت من العاشرة. دخلت المصلحة ووقفت عند السلم وناديت على أمين الذى ظننى قادمًا من عند الإدارة، تطلع إلىَّ متشككًا من وراء النافذة المفتوحة، ورأى جونيور الذى رافقنى وهو يضحك له بوجهه الأجنبى. استلمناها وتوجهنا إلى المنطقة وأفرغنا ما كان فى الثلاجة وحمل كل منا مجموعة من الربط وقمنا نحن الخمسة بتوزيعها.

-5-

بعدما انتهينا جلسنا على رصيف المقهى نشرب الشاى وندخن. كانوا فرحين بالمهمة التى قاموا بها. تداولنا واستقر الرأى على أن أذهب غدًا صباحًا كالمعتاد. إذا سألنى أحد عما حدث فإن على أن أستغرب وأنكر حدوثه أو معرفتى به. فتحى حسين قال أنت قمت بعملك. وزعت الخطابات العادية ووزعت الخطابات المسجلة ولم تلتق بأى أحد، سواء أكان مفتشًا أم غيره. وجونيور تطلع إلىَّ وقال:

- عبد الله، إنت خايف ؟

وأنا قلت: خايف إيه يا جدع.

وهو انفجر ضاحكًا. بينما أضاف فتحى وهو ينقر بكعب القلم على رخامة الطاولة: موقفك القانونى سليم مائه بالمائة. لو أنكرت لن يستطيع أحد أن يثبت عليك شيئًا.

يأكلون البرتقال، ولا يضحكون

-1-

ذهبت صباحًا إلى العمل ووجدت الجميع يتحدثون عن الموزع الذى جرى من المفتش بعدما ترك البوستة فى المنطقة. والريس " توما " سألنى وأنا أوقع فى دفتر الحضور عن هذه الحكاية التى حدثت بالأمس وأنا أنكرت معرفتى وقال:

" يمكن حد تانى بقى ".

-2-

كان بوسعى أن أنكر أمام الريس توما لأننا لم نكن نخشاه. ولم يمر وقت حتى دخل ثلاثة أو أربعة من المفتشين إلى القاعة الكبيرة وعرفت بينهم المفتش الذى جريت منه بالأمس. وهو اقترب منى ولامنى بدون غضب؛ لأننى تركت البوستة بالأمس

فى المنطقة وطلب منى مرافقتهم إلى هناك قبل أن يتأخر بها الوقت. كانوا يظنون أننى تركتها يومًا واحدًا. وأنكرت تمامًا أننى تركت شيئًا. حينئذ دخل دوس باشا متمهلا إلى القاعة الكبيرة ووقف جانبًا. وعندما صمتوا أشار إليهم، والسيجار الغليظ بين أصابعه أن يستمروا. وقلت بصوت يمكن أن يسمعه أننى وزعت خطابات الأمس العادية والمسجلة على أصحابها. ولما استدعوا أمين مسيحة وسألوه قال إنه سلمنى المسجل ووزعته.

-3-

ظل دوس باشا مدير المصلحة يتابع ما يدور؛ وهو يقف جانبًا بقامته القصيرة الممتلئة وهو يضع يده فى جيب سترته البليزر الكحلى والسيجار الغليظ مشتعل بين أصابعه الأخرى. وكان يتطلع إلىَّ مبتسمًا وخيل إلى أنه سعيد بما فعلت. ثم أنه استدار وغادر والجميع وراءه. وبعد قليل جاء من كتب على السبورة السوداء بالطباشير الأبيض أنه تم إيقافى وإيقاف أمين والمفتش عن العمل.

-4-

ما زالت الحقيبة إلى جوارى على الكنبة، والصور والأوراق التى لم أتفرج عليها مكومة إلى جوارها، وكلما انتهيت من فحص شىء أعدته بداخلها مرة أخرى. وكانت فى يدى الآن خطابات من الورق الخفيف الذى وصلنى من جونيور ونسخ من الخطابات التى أرسلتها إليه عن رحلة المحلة الكبرى بعد هربه إلى إنجلترا. وضعت كل شىء جانبًا وخرجت إلى الصالة وجلست معهم آكل البرتقال وأشاهد المسرحية الكوميدية ولم يكن أحد يضحك أبدًا. ونقلونى أيامها إلى المحلة الكبرى وخصموا خمسة عشر يومًا من راتب أمين؛ لأنه عكس ما نبهوا عليه سلمنى الخطابات المسجلة التى أثبتت نزولى ذلك اليوم إلى المنطقة وقيامى بتوزيع الخطابات. ولكننا لم نعرف حجم الجزاء الذى وقع على المفتش، ولكننا عرفنا أنه أدين؛ لأنه ترك الخطابات وحدها فى المنطقة بينما كان عليه أن يتحفظ عليها ويظل واقفًا عندها ولا يتركها حتى يتم ضبطها.

-5-

قالوا أيامها إن أمين ثار ولم يكف عن تقديم الشكاوى أبدًا، ربما؛ لأنه كان ضئيل الحجم وعيناه جاحظتان قليلاً وسرعان

ما يتهور فى كلامه. وهم عندما استدعوه وسأله المفتش كيف سلمنى المسجل بعد التنبيه عليه قال إن الريس أمره بذلك. وعندما سألوه أى ريس؟

قال كيف يعرف إذا كان الرؤساء كثيرين.

بعد ذلك لم أر أمين بسبب سفرى إلى المحلة الكبرى. ولكن الظروف شاءت أن ألتقى به بعد هذه الواقعة بعشرة أو خمسة عشر عامًا عندما كنت مزنوقًا بين الناس فى الأوتوبيس المزدحم ودقات الكمسرى بكعب القلم على لوحة التذاكر الخشبية ترتفع مع صوته الذى يقترب وهو يقول بوهن: "تذاكر. تذاكر يا أفندى منك له " ثم رأيته بعدما شق طريقه وواجهنى. عرفت فوراً أنه أمين مسيحة بقامته الضئيلة وعينيه شبه الجاحظتين، وهو تراجع برأسه التى خلت مقدمتها من شعره الناعم. ظل يحدق فىَّ لفترة، ثم قال باستنكار: إنت جاى ورايا هنا كمان.

–6–

ابتسمت ورفعت يدى بثمن التذكرة، ولكنه ضحك منى. تجاوزنى بينما رأسه يلامس صدرى، ولم أره بعد ذلك حتى

نزلت. كنت أسمع فقط دقات القلم على اللوحة الخشبية، بينما يرتفع صوته بوهن ويقول: تذاكر.

-7-

تركتهم يأكلون البرتقال ويشاهدون المسرحية الكوميدية ولا يضحكون فى الصالة. اتجهت إلى حجرتى ورأيت الحقيبة الجلدية وأنا أدخل من الباب.

عن الخبرة وانتقالها

-1-

كنت مرتاحًا لإيقافى عن العمل. كما أننى كنت فى الثامنة عشرة لا يقلقنى شىء سوى معرفتى أن فى حال عودتى إليه، لن يكون بوسعى أبدًا، أن أدخل أحواش البيوت والتصفيق بيدى وأنا أزعق بعلو الصوت مناديًا على صاحب الرسالة أو غيره من خلق الله. صحيح أننى عرفت بعد تلك المحنة أن هناك مناطق أخرى مثل: قصر الدوبارة لا يوجد بها مثل هذا حيث تتوافر فى مداخل بناياتها صناديق بريد تخص كل من نزلائها، الأمر الذى لا يستوجب التصفيق ولا النداء. ولكنى لم أتأكد من ذلك إلا بعد عودتى من مدينة المحلة الكبرى التى تمت معاقبتى بنقلى إليها.

-2-

قبل سفرى؛ أى أثناء فى فترة إيقافى، كان جونيور قد هرب إلى إنجلترا وبدأنا نتراسل. وهو ما أن علم بهذا السفر حتى

أرسل يطلب أن أوافيه بكل التفاصيل حول هذه الرحلة. (كأنى لم أسافر وما زلت معكم وشايف كل حاجة. ضرورى يا جن)

بعض نسخ الأوراق التى حملت هذه التفاصيل إلى جوارى الآن. كنت أتطلع إليها مطوية بين الصور إلى جوار الحقيبة الجلدية المائلة إلى مسند الكنبة الجانبى، أراها وأفكر فى هؤلاء الذين تركتهم فى الصالة يتفرجون على المسرحية الكوميدية ولا يضحكون. كنت أستغرب من هذا البرتقال الذى يأكلونه بعد ما ينزعون القشر الخشن بالسكاكين عن حباته مختلفة الأحجام. ولوهلة شعرت، بقدر من الأسى على نصائحى التى طالما وهبتها راضيًا ثم ذهبت، كما أدراج الرياح، كما يقولون.

–3–

لقد عمدت دائمًا إلى نقل خبرتى إلى الأولاد فى كل ما كان يخطر ببالى أو أتذكره من شئون الحياة. فيما يتعلق بالفاكهة، على سبيل المثال، فإننى كنت معنيًا طوال عمرى، بثمار البرتقال "أبو صرة" واليافاوى منه على وجه الخصوص، فضلا بالطبع عن ثمار البطيخ الكبير بأختامه الحمراء فى خضرة قشرته الداكنة العميقة، والذى كان معروفًا على المستوى المحلى باسم

البطيخ الشلين. وفى المناسبة، أحب أقول إن تقديرى للبرتقال "أبو صرة" والعمل على أكله دون استخدام السكين فى تقشيره بل أصابعى، وعندى طريقة خاصة فى ذلك ولكن ليس وقته. وهذا من مضارب الأمثال داخل البيت، وربما خارجه.

-4-

لم أكن أريد أن أرحل عن الدنيا وأتركهم نهبًا لهذا الفكهانى أو ذاك. لذلك أخبرتهم مرارًا أن نعومة قشرة البرتقالة أم صرة هى الدليل على نضجها، كما أنهم سيصادفونه حتمًا متقارب الأحجام، وليس مثل ما يأكلونه الآن.

بالنسبة للبطيخ فإن الأمر بالطبع يختلف. حدثتهم مثلاً أن مكان عنق البطيخة مادام ضامرًا كلما كانت أكثر نضجًا. هذا هو السر فى أن أحدًا منهم لم يرنى أبدًا عائدًا إلى البيت وأنا أحمل بطيخة مشقوقة بالسكين لاختبار مدى احمرارها، بل كنت أعود بها مغلقة تمامًا وليس بوسع أحد أن يكابر فى هذا. كنت أقوم - شخصيًا باستخدام السكين الكبير وأستخرج الشقة الطويلة وأرفعها عاليًا فى قشرتها الرقيقة الخضراء التى تستند إليها البطانة البيضاء. هكذا يرونها

حمراء مطرزة باللب الأسود المغروس. وهو أمر ليس مفاجئًا لكل من يعرفنى. فى مرات قليلة فقط كنت استخرج هذه الشقة الطويلة وأجد أن اللون الأقرع غلب عليها. وفى هذه الحالة يكون مذاقها مثل العسل أيضًا.

هذا كله بالطبع عندما كان بوسعى أحمل كيس البرتقال، أو البطيخة، والمشى بها خطوة أو اثنتين.

–5–

استغربت إذن من تفاوت حجم حبات البرتقال وقشرته الخشنة. ورأيت أن خبرتى التى أردت أن أورثها لهم قد انتهى أمرها إلى خبر كان. وهنا انزلقت عن الكنبة واتجهت إلى مدخل حجرتى وتبينتهم يجلسون فى الصالة شبه المعتمة يأكلون ويتفرجون على المسرحية الكوميدية ولا يضحكون. أردت أن أسأل من الحمار الذى اشترى هذا البرتقال؟ ولكنى خشيت أن ينكر نفسه.

–6–

قلت، كأننى لا أسأل، وإنما أزف خبرًا:

- يا ترى مين اللى اشترى البتاع ده؟

وبعدما التفتوا صامتين، قالت زوجتى إن البواب هو الذى اشتراه. وأنا عدت جلست على الكنبة، ولعنت اليوم الذى جعل البواب، هو الذى يشترى البرتقال.

ورق مطوى

-1-

عزيزى جونيور. تحياتى.

يوم الخميس الماضى، صباحًا، جاء توفيق ليرافقنى إلى المحلة الكبرى، وأنا ودعت أمى وإخوتى، وحملت حقيبتى وتركنا البيت إلى محطة السكة الحديد، وها أنا أكتب لك بمنتهى الدقة حسب رغبتك عن كل ما جرى.

-2-

غادرنا القطار فى محطة طنطا، وأنا رأيتها أكبر من محطة مصر؛ لأن فيها قطارات كثيرة جدًا، وبعدما جلسنا بمقهى فى ميدان الساعة، على مقربة من السيد البدوى، تناولنا الإفطار وشربنا الشاى، ثم قمنا وركبنا قطارًا آخر إلى المحلة الكبرى. كنت أجلس إلى جوار الشباك وتوفيق إلى جوارى والغيطان لا أول لها ولا آخر. ورغم أن المسافة لم تكن تتجاوز نصف

الساعة فقد توقف القطار فى عدة قرى، كنت أقرأ أسماءها فى اللافتات المنتصبة على أرصفة محطاتها الصغيرة: الرجدية، شبشير الحصة، محلة روح، صفت تراب، منية شنتنا عياش، ثم توقف فى المحلة الكبرى.

-3-

غادرنا القطار، وعبرنا الحصى فى رائحة الزيت المحروق والقضبان الممتدة. وتجاوزنا الرصيف إلى الجانب الآخر. كان المبنى الحجرى شبه المدور مثل قصر صغير فى الناحية اليمنى كما وصفوه لى بالضبط، بسياجه القصير المزروع، وحديقته التى تباعدت فيها الأشجار العالية، وكانت اللافتة البيضاوية الزرقاء واضحة من هنا وهى معلقة أعلى المدخل المفتوح وقد كتب فيها بالأبيض كلمة (بوستة).

اتجهنا إلى هناك، وتقدمنا على الأرض شبه الموحلة فى الحديقة غير المعتنى بها، ولاحظت أن جدار المبنى الأصفر كان مبتلاً من مياه الأمطار التى توقفت، بينما بقعا أخرى كانت جفت من شمس الشتاء الخفيفة التى تغرب، ثم تسطع من جديد. ودخلنا من الباب وقلت:

- سلام عليكم.

-4-

كنا فى منتصف اليوم تقريبًا. ومجموعة من اللمبات المحمرة متباعدة فى القاعة الكبيرة الدافئة، ورئيس المكتب عاكف فى عمق الناحية اليسرى على مجموعة من الأوراق وراء مكتب عريض من الخشب البنى المصقول، وهو نظر إلىَّ من أعلى نظارته وتفحصنى وقال:

- عليكم السلام ورحمة الله.

تقدمت إليه ووضعت حقيبتى وأعطيته خطاب النقل الذى أحمله، وبينما يطالعه اتجهت إلى أقرب المقاعد وطلبت من توفيق أن يجلس وجلس. وكانت طاولة كبيرة تتوسط المكان عليها عدة أكوام من الخطابات ومجموعة من الختامات المفتوحة والأختام ذات الأيدى الخشبية، وهناك عدة أجولة مركونة عند الجدران وممتلئة بالخطابات ومختومة بالشمع الأحمر، وكانت الجدران كلها عبارة عن خانات ألقيت فيها الخطابات كيفما اتفق، وفى الركن كومة من الطرود الكرتونية والمغلفة بالخيش أو القماش، صندوقان كبيران ومفتوحان من أعلى يستقبلان الرسائل التى يدسها المارة عبر الشقوق الموجودة فى جدار المبنى من الخارج. وفى الركن البعيد كان شابًا نحيلاً وطويلاً فى بذلة رمادية كاملة ويضع على رأسه

طربوشًا أحمر (الوحيد الذى رأيته هكذا حتى الآن) كان يجلس منحرفًا على حافة Nحدى الطاولات المنخفضة وقدمه القريبة مرتفعة، والأخرى مستندة إلى الأرض، وبين يديه علبة دخان مفتوحة من الصفيح. انتهى من لف سيجارة واقترب منى ومدها إلىَّ مبتسمًا وقال:

- أهلا وسهلاً. أنا زميلك عبد الغفار.

وقلت:

- وأنا عبد الله.

- من مصر طبعًا.

قلت:

- آه

والتفت إلى توفيق وقلت:

- توفيق، صاحبى.

قال:

- أهلاً وسهلاً. ولف له سيجارة أخرى.

وعلى فكرة، مدير المكتب رجل قصير جدًا وراء المكتب ورأسه قريب من شمسية الأباجورة المعدنية التى انعكس ضوءها على سطح هذا المكتب وغيب عنى ملامح وجهه قليلاً،

لكنه رجل أنيق جدًا ويرتدى بذلة من الصوف الرمادى الثقيل وصدار من نفس القماش وربطة عنق لونها كحلى وبها زهور صغيرة حمراء، وفى جيب الصدار منديل بنفس الألوان. أخبرنى أننى سوف أستلم العمل بعد غد. كنا يوم الخميس كما أخبرتك، وكان علي أن أختار إن كنت سوف أستخدم الدراجة أو الحمار، وأن زملائى سوف يعاونونى فى هذا الأمر، وقال:

- معاك عفش ؟

قلت إنه سوف يصل خلال أيام، وقال إنه لا توجد مشكلة:

- ممكن تنزل اليومين دول فى لوكاندة أنت وصاحبك. وديع. إنت يا وديع.

ورأيت بابًا صغيرًا يفتح فى الجدار، ويقف فى فتحته رجل عجوز بفانلة طويلة الأكمام عليها صدار بلدى مغلق، وعلى رأسه طاقية صوفية وفى جانب فمه سيجارة بنية رفيعة ومعوجة. وقال المدير:

- إعمل شاى للطواف الجديد وصاحبه.

ووديع نظر إلىَّ وابتسم ثم، دخل وترك الباب مفتوحًا.

مرآة صغيرة وصافية

-1-

بعدما شربنا الشاى الذى أعده الساعى وديع وقدمه لنا فى كوبين أحدهما أكبر من الآخر، على صينية من الصاج النظيف، حملت حقيبتى واستأذنت مدير المكتب فى الانصراف. وهو هم بالقيام وقال:

الحضور الساعة تمانية. معاهم يا عبد الغفار.

وعبد الغفار لحقنا قلع الطربوش. أمسكه فى يده ولحقنا.

-2-

كانت ترعة كبيرة تمتد بالعرض وتفصل ما بين الأرض التى يوجد بها محطة السكة الحديد والمكتب وبين المدينة، ونحن عبرنا الجسر بسياجه الحديدى إلى الناحية الأخرى؛ حيث

الطريق الذى يمتد موازيًا لهذه الترعة، وعبد الغفور رفع يده التى تحمل الطربوش وقال: " طريق البحر " .

ثم توقف وقال إن كل المقاهى التى تطل على الماء هى مقاهى البورصة. واتجهنا إلى الشارع الكبير فى مواجهة مدخل الجسر وقال إنه شارع "العباسى" ، أهم شوارع المحلة. وبعدما تقدمنا توقف والتفت إلى الناحية اليسرى، وأشار إلى لوكاندة تعلو مطعمًا صغيرًا وقال إن كل الزملاء الجدد ينزلون فيها حتى يستأجروا سكناً، وإنها قريبة وأسعارها معقولة. ورحنا نواصل المشى على مهل. كان عبد الغفار سعيدًا، وهو يقودنا ويطوح الطربوش فى يده، ويلقى التحية على أصحاب بعض المحلات والورش المفتوحة التى كانت تشغل الأدوار الأرضية ويريد منهم أن يرونا برفقته. وكانت عربات قليلة مركونة على الجانبين وأعداد قليلة من الناس تمشى فى عرض الشارع أو على الرصيفين. ظللنا هكذا حتى وصلنا إلى تقاطع كبير لشارع أخبرنا أن اسمه البهلوان. فى الناحية اليمنى منه كان موقف الحناطير: " أى واحد عاوز حنطور، لا يبحث إلا هنا " . فى الناحية اليسرى دعانا إلى مقهى له شرفة مفتوحة على الشارع. جلسنا ووضع ساقًا على ساق ولبس الطربوش واعتذر عن سجائرنا وأخرج علبة دخانه وأصر أن يلف لنا سيجارتين

مع القهوة. عندما كنا نحتسيها نظر، وقال إن هذه هى الكنيسة، وإن هذا جامع أبو الفضل، وهذه هى مدرسة الأقباط.

–3–

فى المطعم، عملنا بنصيحة عبد الغفار وتناولنا طاجنين . كانا من الفخار الساخن وممتلئين باللحم والبطاطس، وصحون من الباذنجان الأسود المتبل بخليط من الفلفل الأحمر والأخضر والكمون والمنقوع فى الخل والليمون المعصور، وكان العيش طازجاً. ونحن أكلنا بشهية وشربنا الشاى ودخنا. وتوفيق أصر على دفع الحساب ثم صعدنا إلى اللوكاندة من المدخل المجاور للمطعم.

كانت الحجرة بالطابق الأول فوق الأرضى. الدرج من الخشب وكذلك الدرابزين. كان عامل اللوكاندة يرتدى السترة على الجلباب ويسبقنا إلى أعلى وهو يحمل حقيبتى. فى الطرقة الطويلة توقف وفتح باب الحجرة رقم «٣٥» وسبقنا ووضعها على الفراش وأضاء النور. أعطيته قرشين فتهلل وقال محسوبك رزق، أى شىء تريده اضرب الجرس أكون عندكم بعد دقيقة واحدة.

- وبعدين القهوة والمطعم تحتكم على طول. أحسن حاجة تطلبها فى الغدا طاجن باللحم ، وتقدر تدفع بالشهر. كل زمايلك عندهم حساب بالشهر.

وتركنا وانصرف.

-4-

كانت الحجرة متسعة، وهناك سريران يواجه كل منهما الآخر بملاءات نظيفة ومشدودة، ودولاب بنى من الخشب القديم الناعم فى وسطه مرآة بيضوية صغيرة وصافية، وفى الناحية الأخرى كانت منضدة صغيرة عليها أباجورة مطفأة وراءها مقعد. اتجهت إلى باب البلكونة وفتحته فهبت علينا أصوات الشارع العباسى وبرودته. وهناك فى أقصى اليمين كان مبنى مكتب البريد يبدو واضحًا وفروع الأشجار الكبيرة فى حديقته مائلة عليه. وعندما ملت أكثر على السور رأيت قوس الجسر الخشبى الذى يعبر الترعة إلى شارع العباسى، وإحدى عربات الكارو تنحدر إلى يسار البلدة وتختفى.

-5-

دخَّنا مرة أخرى ونحن نتفرج من البلكونة على الشارع، ثم أغلقنا بابها واستلقى كل منا على سرير. أنا ارتديت بنطلون البيجامة وتوفيق قلع السترة والقميص وظل بالبنطلون. أردنا أن نرتاح قليلاً لأننا سهرنا مع حمادة طول الليل. وقبل أن نغفو قال توفيق وهو نائم يتطلع إلى السقف:

على فكرة صاحبك بتاع السجاير اللف ده، راجل مسخرة.

حجرة أخرى

-1-

عزيزى جونيور. تحياتى.

مساء نفس اليوم، انتبهت من نومى على صوت طرقات بعيدة وتهيأت للنزول عن الكنبة كى أفتح الباب، إلا أنها لم تكن كنبتى ولا كانت طرقات خالتك أم عبد الله هى التى سمعتها على الباب، بل كان فراشًا غريبًا وحجرة غريبة وتوفيق نائم على حافة فراش آخر، وهو يضع ساقًا على ساق كعادته، ووراءه دولاب بمرآة بيضوية. تذكرت فورًا أننا بالفندق الصغير بعدما جئنا اليوم إلى المحلة الكبرى لتنفيذ الجزاء الذى وقع عليَّ، وأن توفيق سيعود غدًا ويتركنى وحدى، وانقبض صدرى وتمنيت لو أن ذلك كان حلمًا وأن بوسعى العودة معه إلى البيت.

-2-

عندما فتحت الباب وجدته واقفًا أمامى يبتسم لى بوجه أسمر وعينين كبيرتين. وقال فى خجل:

- الحمد لله على السلامة يا عبد الله. أنا سليمان.

تراجعت قليلاً: أهلاً وسهلاً. اتفضل.

هز رأسه مرحبًا بتوفيق الذى اعتدل، وظل واقفًا من دون أن تتلاشى ابتسامته، وقال إنه قادم لكى يأخذنا إلى المقهى. كل الزملاء ينتظروننا هناك.

كان شعره ناعمًا وطويلاً على أذنيه ويرتدى فانلة خفيفة من الصوف الرمادى لها ياقة وفتحة قصيرة بأزرار مغلقة. ولم يلبث أن ضغط جرسًا على جوار مفتاح النور، وعندما صعد رزق أسرع يفتح له الباب وطلب منه أن يأتى بمقعد آخر، وعاد من عند الباب وهو يقول:

- أى حاجة تحتاجها أطلبها. الناس هنا بتحبك وتسمع كلامك.

وأنا استغربت من هذا الكلام ولاحظت أنه يحمل حقيبة من الجلد البنى فى حجم كتاب كبير ومعلقة بحزام له رقعة عريضة على كتفه. وقال إنه سينتظرنا أمام الباب حتى نرتدى

ثيابنا. طلبنا منه أن لا يغادر. وبدلنا ثيابنا أمامه وهو يجلس على حافة الفراش مطرقًا إلى الأرض.

-3-

عندما عدنا آخر الليل من المقهى كنت عرفت شيئًا عن المكتب وزملاء العمل. لقد التقوا بنا وهم يرتدون الجلابيب. وكان عبد الغفار الذى قال عنه توفيق إن: "صاحبك عبد الغفار بتاع السجاير اللف ده راجل مسخرة " قد خلع البدلة والطربوش وارتدى جلبابًا له فتحة مدورة ويضع علبة الدخان اللف داخل جيب الصدار القطنى اللامع بأزراره الصدفية المتقاربة. كان هناك واحد آخر من الإسكندرية اسمه فتوح وآخر من مكان لم أنتبه إليه وزميلان من أهالى المدينة يعملان موزعين داخلها وواحد يدعى صبحى. كما علمت أن المدير يدعى فؤاد سركيس ويسكن فوق المكتب، وإن سليمان الذى أخذنا من الفندق يهوى كتابة الشعر وجاء من القاهرة قبل عام أو أكثر. كنت سأعمل طوافًا يطوف على مجموعة من القرى راكبًا دراجة، بينما كان هو الطواف الآخر الذى يمر على مجموعة أخرى من القرى راكبًا حمارًا. وعندما سأله توفيق لماذا لا يركب دراجة مثل عبد الله قال إن الطرق بين القرى فى

الخط الذى يعمل عليه لا ينفع لها إلا الحمار بسبب المدقات الضيقة. كانوا تحدثوا عن كتابته للشعر وهم يتبادلون الابتسام من وراء ظهره بينما هو يجلس مطرقًا. وعلق أحدهم قائلاً لا تنسى أنه يسلى نفسه بإلقاء الشعر على الحمار طول السكة، وأن هذه ميزة لن يجدها فى إحدى البهائم التى تعمل معه فى المكتب. وضحكنا جميعًا بينما ظل هو ينظر إلى قدميه بوجهه المبتسم. بعد ذلك قمنا وأخبرونى أننى سوف أستأجر الدراجة بجنيه ونصف فى الشهر، بينما المصلحة ستدفع لى ثلاثة جنيهات، نفس الأمر يطبق مع الحمار وأنه يتناول معظم أكله من الغيطان التى مر عليها.

-4-

لما وصلنا عند العجلاتى القريب من الكنيسة رحب بنا وجلس بعضنا ووقف الباقى أمام الدكان الذى علقت على جدرانه الداخلية وعلى جانبى واجهته مجموعة من الدراجات. كانت وصلته أخبار الطواف الجديد، وكان يعدها الآن ويضبط أسلاكها وهى مقلوبة تحت الرصيف. وبعد ما ضغط المزيتة الصغيرة الحمراء على الجنزير، أمسك البدال ولفه عدة مرات ورأيت عجلات الدراجة المقلوبة وهى تدور أمامى فى الهواء، ثم

أنه استوقفها بكف يده وأنا سمعت احتكاك الكاوتش بهذه الكف حتى توقفت تمامًا، ثم مال قبض عليها وقلبها أمامه واستقرت على العجلتين، حينئذ أمسك بها من منتصف المقود واستدار إلىَّ باسمًا، وقال:

عجلتك.

بريد القرى

-1-

بعدما انصرفوا آخر الليل لم يتركنا سليمان الشاعر إلا أمام الفندق. كان قال إن استخدام الحمير فى هذا العمل أمر شائع، وهو اختاره بدلاً من الدراجة؛ لأنه يتيح ليديه أن تكونا خاليتين. يستطيع أن يخرج الكشكول والقلم ويتأمل ويكتب ما شاء، مطمئنًا أن الحمار سيقوده من قرية إلى أخرى، لأن الحمير التى تعمل فى هذه المهنة تعرف طريقها جيدًا، ولا تخطئ أبدًا.

-2-

حقيبة الطواف، تلك التى يضعها على ظهر حمار أو يثبتها فى مقود دراجة، هى مكتب بريد متنقل.

إنها تحتوى على بريد القرى التى سوف تمر عليها (فى حالتى كانت خمس عشرة قرية). دفتر كبير لتسليم الخطابات

المسجلة الواردة إليها، دفتر آخر لتسلم الخطابات المسجلة الصادرة منها، بالحقيبة أيضًا ختامة، وختم ذى يد خشبية طويلة ناعمة، رأسه المعدنى مستدير ومسطح، ويكون عليك أن تجذب من جانب هذه الرأس مسمارًا رفيعًا لكى تتحرر الحلقة التى تحمل تواريخ الأيام والشهور والسنوات وتضبطها على تاريخ اليوم وأنت تحركها إلى الخلف وإلى الأمام، بحيث يصبح بارزًا فى منتصف الختم، بعد ذلك تدفع المسمار فى ثقبه؛ ليثبت هذه الحلقة فى مكانها حتى لا يتوه التاريخ أو تختلط الأيام. بقية رأس الختم المسطحة ثابتة لا تتحرك من مكانها، تحمل جملة (المحلة الكبرى) فى حروف بارزة.

–3–

عندما تدخل القرية سوف يسألك كل من يراك من القرويين إن كان معك خطابًا لفلان أو فلان. تستمر فى طريقك حتى يتوقف بك الحمار، أو توقف أنت الدراجة، عند صندوق البريد الحديدى الصغير المعلق على جدار خارجى فى دوار العمدة غالبًا. تخرج خطابات القرية إن كانت هناك خطابات، هناك قروى معلوم سوف يتسلمها منك. معك مفتاح واحد لكل الصناديق. عندما تفتح الصندوق تجد فى غطائه ختمًا بارزًا

فى حجم نصف إصبع يحمل اسم القرية، تضغط عليه بالختامة وتعيدها إلى الحقيبة، وتمسك الكشف الذى قيدت به أسماء القرى الخمسة عشرة وتضغطه على هذا الإصبع؛ لتطبع اسم القرية أمام الخانة الخاصة بها. عندما تعود بهذا الكشف إلى المكتب تثبت أنك لم تترك قرية واحدة لم تمر عليها. فى أرضية هذا الصندوق المتربة تعثر على خطابين أو ثلاثة أو أكثر، أو لا تعثر. فى طرف كل خطاب تجد أن المرسل ترك لك قرشًا مثقوبًا ملضومًا من ثقبه بخيط رفيع فى طرف هذا المظروف، إنه ثمن طابع البريد الذى يثق القروى أنك ستلصقه له بديلاً عن هذا القرش المثقوب.

-4-

كانت القرى الخمسة عشرة تبدأ من حدود المدينة وتنتهى إليها. رحلة روعى فيها أن تكون دائرية. فى يومى الأول لم يتركنى سليمان الشاعر وجدى. أعد لى خطابات كل قرية بحيث تتبع الأخرى. واطمأن على وجود الدفاتر والختامة وضبط لى تاريخ الختم الكبير وطوى الكشف الذى سأختمه فى كل قرية ووضعه فى جيبى اطمأن على وجود مفتاح الصناديق واتجه معى إلى بداية الطريق، وعندما توقفنا استندت بقدمى

إلى الأرض، ورفعت وجهى إليه بينما هو يعتلى ظهر الحمار، وهو تطلع إلى من هناك بوجهه الذى لا تغيب ابتسامته ومد ذراعه إلى الطريق الممتد بين الحقول وقال:

- على طول، تلاقى نفسك فى قرية بلقينا . ومن بلقينا لا توجد مشكلة.

-5-

ما أن تقدمت قليلاً حتى شعرت بالهواء يحمل رذاذًا خفيفًا إلى وجهى. كنت عرفت أننا لا نقوم بعملنا إذ ما أمطرت. هكذا استدرت وعدت إلى المكتب. تركت الدراجة بالخارج وحملت الحقيبة ودخلت. كان الأستاذ فؤاد مدير المكتب يجلس كما هو يقلب الأوراق فى صمت، وهو رفع وجهه إلىَّ وقال:

- خير؟

قلت:

- الدنيا بتمطر.

طلب منى أن أجلس، ثم أشار إلى وديع الذى كان يمسك بالبراد أن يصب لى كوبًا من الشاى، وانشغل فى عمله.

-6-

عندما انتهيت من شرب الشاى ترك ما فى يده وتطلع إلىَّ وقال:

شوف يا ابنى. العمل اللى إنت بتقوم بيه ده، عبارة عن رسالة. رسالة إنسانية، مهمة جداً. فكر فى الناس اللى فى انتظارك، وبتتمنى وصولك.

ومال بوجهه ناحية الباب وقال:

- تفضل.

وأنا حملت حقيبتى وخرجت.

البنت ذات الشعر الطويل

-1-

عزيزى جونيور.

لا أجد الكثير مما يمكننى قوله عن رحلة المحلة. أنت عرفت الآن طبيعة عمل الطواف، وكيف يمر على القرى يحمل رسائلها. هذه الرحلة تتكرر كل يوم من دون تغير كبير، باستثناء بعض التفاصيل التى سوف أحكى لك ما قد أذكره منها. وبما أنك تترجم هذه الرسائل وتقرؤها على اليزابث فإن هناك أشياء لن أكتبها، لأنك قد تترجمها لها باعتبارك رجلاً لا تخجل، بينما نحن نشعر بالإحراج.

-2-

مرة، وأنا أتقدم مغادرًا زمام إحدى القرى، خرجت من بين أعواد الذرة بنت صغيرة تلبس جلبابًا نظيفًا به زهور باهتة، وكان شعرها الأسود فى بنى يتدلى على ظهرها فى ضفيرة

طويلة بصورة مدهشة. كانت وقفت على حافة الطريق الضيق وهى تلتقينى ضاحكة بلا صوت. فى اليوم التالى وفى نفس المكان خرجت البنت وبرفقتها امرأة شابة استوقفتنى وهى تمد يدها بخطاب مكتوب عليه اسم رجل من دون عنوان وطلبت منى أن أسرع بوضعه فى الحقيبة، وأنا رفعت حافة الغطاء الجلدى وأسقطت الخطاب. قالت إن صاحبه يعمل فى محطة السكة الحديد التى وراء مكتب البوستة مباشرة. وهى تريد منى أن أسلمه له يدًا بيد ولا اعطيه لأحد آخر. أردت أن أخبرها بأننى جديد هنا ولا أعرف أحدًا، ويمكننى أن أضع لها طابعًا وأرسله له، كنت أفكر فى ذلك، بينما راحت هى تتفرس بعينين فيهما أثر من كحل مغسول، ويبدو أنها أدركت ما كنت أفكر فيه؛ لأنها قاطعتنى قائلة إنها لن تنسى لى أبدًا هذا المعروف. اسأل عنه وستجده، وربتت على كتف البنت ذات الشعر الطويل التى كانت تنقل عينيها بيننا وقالت إنه أبوها. هززت رأسى موافقًا واعتليت الدراجة، وبينما كنت أبتعد صاحت البنت ورائى: مع السلامة.

-3-

فى نهاية الدورة عدت إلى المكتب. عزلت خطاب المرأة الشابة فى جيبى وأنهيت الأعمال وذهبت إلى الفندق. تناولت غذائى ونمت.

لما جلسنا ليلاً حكيت لسليمان عن البنت ذات الشعر الذى يكاد يصل إلى قدميها والمرأة الشابة والخطاب المرسل إلى رجل فى المحطة. سليمان اهتم جداً بالموضوع، وطلب منى أن نذهب نسأل عنه ونسلمه له. استنكرت أن نذهب هكذا فى الليل لكنه لم يهتم. تناوله منى وذهبنا إلى المحطة ولم نجد أحداً، لكنه ظل يسأل حتى عرف عنوان مسكنه، واتجه إلى المكتب وعاد بالدراجة من وديع الفراش. طلب منى أن أنتظره بالمقهى وركبها وابتعد. بعد ما انتهيت من شرب القهوة رأيته قادماً على قدميه من ناحية المقهى. أخبرنى أنه سلمه الخطاب، وأن الرجل فرح وسأله عن صحة البنت الصغيرة التى عرف أن اسمها شيماء. وسليمان قال إنه أوضح للرجل أن زميله عبد الله هو الذى أتى بالخطاب، وبسبب ظرف طارئ جاء هو نيابة عنه. وجلس سعيداً ثم قال: كان لازم نسلمه الجواب يا عبد الله.

-4-

وسليمان هذا، يا جونيور، هو الشاعر الذى حدثتك عنه. إنه لا يتركنى. منذ وصولى نلتقى كل يوم تقريباً. فى إحدى القرى التى يمر عليها راكباً حماره يوجد وقف للأميرة شويكار عبارة عن حدائق هائلة من أشجار البرتقال. خفيرها هو

رضوان الذى يحب الشعر ويكتبه هو الآخر. سليمان يترك الحمار يرعى ويمضى بعض الوقت برفقة صاحبه. وعندما تنتهى دورتى أنام قليلاً، ثم يمر على ليلاً لنجلس وحدنا بالمقهى الصغير تحت الفندق، وأحيانًا بالمقهى الذى يجلس به زملاء المكتب. وهو عندما يأتى لا بد أن يحضر لى بضع حبات برتقال من وقف الأميرة. وهى حبات كبيرة ورائحتها قوية. يمكنك نزع قشرتها الغضة بسهولة، حيث تطالعك الفصوص الكبيرة متماسكة فى غلالتها القطنية الخفيفة، وهى تبدو فصوصًا جافة رغم امتلائها بالعصارة، عندما تأخذ فصًا وتقضمه تجده حلوًا كأنه سكر.

السيد العجوز فى حجرتها

-1-

قبل عدة أيام، وصلنى ذلك السرير الإنجليزى الصغير الذى كنت تراه ملموماً ومركوناً فى ركن الحجرة، والذى كنت شرحت لك كيف تفرد أعواده الخشبية المتقاطعة وتعلق فى أطرافها الحديدية الحلقات المثبتة فى حواف قماشه الثقيل، كما وصلت بعض أغراض أخرى سلموها فى مصر إلى عربية البريد الملحقة دائمًا بالقطار، وعندما عدت من الدورة وجدتها بالمكتب، كما وجدت أن سليمان استأجر لى حجرة على مقربة من المكتب، فى بيت سيدة صماء تلازم الفراش. كانت تعيش فى حجرة أرضية أول الطرقة الطويلة التى توجد حجرتى فى آخرها. أنا لم أرها لكن حفيدتها الشابة التى اتفقت مع سليمان وتعيش مع بقية الأسرة فى الطابق الأول، طلبت منى عندما أعود ليلاً من الخارج، أن أشعل نور هذه الطرقة حتى

تعرف العجوز أننى عدت. وعندما كنت أفعل ذلك فى أى وقت من الليل يأتينى صوتها النحيل متسائلاً:

- عبد الله ؟

وأنا أقول:

- أيوه.

وشعرت برغبة فى ترك هذا البيت.

-2-

لم أكن أريد أن أحرج سليمان بسبب اختياره لهذا المسكن الذى أصابنى بالتوتر، ولكن ما أن التقينا ليلاً فى مقهى الزملاء الذين راح بعضهم يبارك لى المسكن الجديد ويسألنى عن أخباره حتى وجدتنى أقول إنه مؤقت وإننى سوف أبحث عن آخر. ولم أقدم سبباً لهذه الرغبة. وعبد الغفار قال وهو يلف سيجارته فوق علبة الدخان المفتوحة إنه لا توجد مشكلة فى هذا وإننى ممكن أسكن كل يوم فى بيت غير الآخر. وسألنى إن كنت سمعت شيئًا من شعر سليمان أم لا ورحنا جميعًا نضحك بما فينا سليمان. كانوا قالوا أمامى مرة إنه

يحب " نور " ابنة أصحاب البيت الذى يسكن فيه. وأنا من ناحيتى كنت طلبت منه أن يطلعنى على شىء من شعره، ولكنه قال إنه يكتفى فى هذه المرحلة بالكتابة وبعد ذلك سيتفرغ لمراجعة ما كتبه ويسمعه لمن يريد. لم أسأله مرة أخرى لأننى كنت واثق أننى سأطلع عليه مع الوقت ولو عن طريق الخطأ. وهو همس لى متسائلاً إن كان شيئًا ضايقنى من المسكن الجديد وأنا قلت:

- أبدًا والله.

-3-

فى الصباح، كنت انحرفت ناحية بائع الدخان، ثم إننى فوجئت بعشرات الآلاف من الرجال فى ضباب الصباح. كانوا يركبون الدراجات ويتقدمون ببطء فى عرض الشارع وقد تلامست أكتافهم وعلق كل منهم منديلاً كبيرًا ملونًا مربوطًا على ما يشبه العيش فى مقود دراجته، وكان بعضهم ينزل ويميل إلى جانب هذا الطريق؛ حيث باعة العيش وأقراص الطعمية والبصل الأخضر والجبن القريش والجرجير. هؤلاء كانوا يفكون ربط المناديل ويضيفون إليها ما يشترون.

وقفت مبهوتًا وأنا أتابع هذه الآلاف وهى تتقدم بطيئًا بينما تغيب مقدمتها هناك فى ضباب الصباح.

–4–

ما أن التقيت سليمان حتى سألته وأخبرنى أنها الوردية الصباحية من عمال المحلة يذهبون إلى مصانع النسيج الكبرى، وأنهم يزحفون من القرى المجاورة والنجوع، ثم يتجمعون هكذا فى شارع الإنتاج، ثم قال إن فى نهاية هذا الشارع توجد مداخل هذه المصانع وإن على جانبيها أعدادًا هائلة من محلات يترك فيها العمال دراجاتهم، وإنهم ساعة الانصراف لا يغادرون كما دخلوا، بل واحدًا تلو الآخر. يقف العامل قبل البوابة وقد رفع ذراعيه عاليًا، بينما يتحسسون جسده وساقيه؛ ليطمئنوا على خلوه من قطعة قماش ملفوفة. بعد ذلك ينزل ذراعيه ويغادر.

–5–

عندما انتهى السهر، رافقنى إلى باب البيت؛ حيث وقفنا نتكلم حتى دعوته للدخول ولكنه اعتذر. وقال إنهم لا يجدون ما يضحكون عليه إلا حكاية الشعر، مع إنه شرح لهم أنه غير مستعد الآن لكى يقرأه على أحد. وقال إن أحدًا لم يجبره على

أن يشرح لهم أى شىء، ولكنه فعل ذلك بخاطره، ثم أوضح لى أنه غير متضايق من ضحكهم، والدليل على ذلك أنه يضحك معهم، ثم تطلع إلى وقال إنه يرجونى أن لا أضحك معهم. لا يحب أبداً أن يرانى أشاركهم فى هذا:

- إنت بالذات يا عبد الله ".

وصعدت السلم

-1-

بالأمس، كانت أمطرت فى الليل مطرًا غزيرًا، لم أشعر به إلا عندما غادرت البيت صباحًا فى طريقى إلى العمل. كانت الشمس الخفيفة قد طلعت على جانب من الشارع المبتل، كذلك مساحات من جدران البيوت الجانبية التى بقعها الماء، بينما تجمعت بعض البرك فى حضن الرصيف الممتد.

وكان الهواء مشبعًا بالرطوبة ورائحة المطر.

-2-

كل الحقول صامتة. لا صوت أبدًا فى هذه المساحات الهائلة بين القرى التى أمر بها. حقول الذرة حيث التقيت المرأة الشابة والبنت الصغيرة تكون طويلة وكثيفة فى هذه الناحية من الطريق، بقية الحقول ليست كذلك أبدًا. كثيرًا ما أتمهل

بدراجتى أمام حقول أخرى وأرى تلك النباتات الرفيعة الخضراء، وهى تزركش جوانب الخطوط الطينية الداكنة دون أن أعرف هل هى البرسيم أو الأرز أم أنه زرع آخر. ترى الأراضى مروية أو جافة أو خالية إلا من بعض أكوام السباخ أو الأعشاب الخضراء الململمة المتباعدة، أو ترى ساقية وشجرة أو ترى نخلة. تظن أن لا أحد هناك حتى تفاجأ بفلاح ينهض وهو يمسك بسكينه المقوس أو حزمة من عشب يلقى بها على غيرها ويجلس. الفلاح لا تراه أبدًا مادام ساكنًا فى موضعه داخل الحقل. صدقنى يا جونيور عندما أقول لك إنه يتحول إلى جزء طبيعى من المشهد المحيط لا تلحظه إلا إذا استقام أو تحرك.

الحمار كذلك. بعد ما ظننته غير موجود يفاجئك بأن يرفع أنفه الكبير متشممًا الهواء الطلق. أو يباغتك بنهقة قصيرة، ويسكت.

-3-

آخر النهار سمعت طرقًا خفيفًا على باب حجرتى المردود، عندما فتحت وجدت شابة تتطلع إلىَّ بعينين جريئتين. كان شعرها مفروقًا من النصف، ولها ضفيرتان صغيرتان تستلقيان على نهديها المكورين. عرفت وجهها الذى يطل دائمًا، بينما هى

تتكئ بمرفقيها على قاعدة شباك الطابق الأول تراقب الطريق. قالت إنها دعاء، حفيدة الجدة فريدة صاحبة البيت. أخبرتنى بصوت له بحة أن زميلى سليمان جاء بالليل المتأخر وظل واقفًا فى المطر يدق على باب البيت الخارجى. وأنه ظل يفعل ذلك زمنًا طويلاً وانصرف. غاب وعاد يخبط بقوة أكبر وقد أغرق الماء شعره الطويل. قالت إنهم لم يفتحوا له؛ لأنهم ظنوا إننى سمعته وتجاهلته لأن الوقت كان متأخرًا. شعرت بالضيق وقلت لها إننى لم أسمعه أبدًا. واستغربت أنها تعرف اسمه واستغربت أكثر أننى التقيته صباحًا فى المكتب ولم يخبرنى بشىء من ذلك.

أومأت بوجهها إلى الناحية الأخرى من الطرقة فتحركت ضفيرتها القريبة وقالت:

- تعالى أعرفك على جدتى.

–4–

ما أن ترى العجوز حتى تبدو لك مثل جنية صغيرة بوجهها المدور الضاحك وهالة الشعر الفضى المنكوش حول وجهها من كل جانب، ودعاء قالت لها:

" إزيك يا فريدة " .

وفريدة تهللت وفتحت فمها الخالى من الأسنان، وهى تقف فى ركن الحجرة بقامة ضئيلة وجلباب نظيف بورود حمراء خفيفة. اقتربت منى ومدت يدها الدقيقة تصافحنى خجلة للغاية، ثم دعتنى بعينيها إلى الجلوس وصعدت بركبتها على المرتبة المغطاة واستلقت على سريرها النحاسى بأعمدته النحاسية المربعة. استندت بظهرها إلى المخدات ودعاء غطت لها ساقيها وهى تقول:

- عاملة إيه يا فريدة ؟

واتجهت إلى منضدة الصغيرة فى ركن الحجرة عليها آلة عود فى كيس من القطيفة الذهبية الباهتة. وقد بدت الحجة أكبر من حجرتى ولها نافذة طويلة تطل على الطريق الجانبى تغطيها ستارة من التولى. وكانت هناك كنبة بلدية فى هذا الجانب ومقعدان كبيران فى الجانب الآخر. وثلاثة إطارات من الخشب المطعم بالصدف حول صور باهتة بالأبيض والأسود على طول الجدار. وفوق الكومودينو القريب من رأس السرير كانت علب وزجاجات دواء وكوب مقلوب ودورق به ماء. قالت دعاء إن بوسعى التحدث مع فريدة وقول ما أشاء وهى سترد علىَّ دامت ترى شفتى، وأنا التفت إليَّ فريدة ووجدتها ضمت ذراعيها على طرف الغطاء وتطلعت إليَّ ضاحكة فى انتظار أن

أتكلم. ولكننى ابتسمت لها ولم أعرف ماذا أقول، وهى ظلت تتأملنى طول الوقت، ثم صاحت مثل طفلة : " من مصر " ؟

وقلت:

" آه " .

وهى خبأت وجهها بكفيها .

-5-

كنا انتهينا من شرب الشاى فى أكواب القيشانى الملون. ودعاء قبلت جبين فريدة وأنا صافحتها، وقبل أن أغادر باب الحجرة صاحت ورائى:

- مع السلامة يا عبد الله. وضحكنا جميعًا .

عند باب حجرتى المفتوح قلت لدعاء إن جدتها جميلة جداً . وعندما هزت رأسها موافقة وتطلع كل منا فى عين الآخر قلت لها :

- ما تتفضلى.

وهى قالت:

- مرة تانية.

وراحت تصعد السلم.

حاذر إذن أن تهتم

-1-

كلما مررت فى الطريق الرئيسى لأى قرية، لا بد وأن أسمع صوتًا عاليًا يصيح ورائى: معاك جوابات؟

ولما أخفف سرعتى وألتفت، أرى قرويًا يتطلع إلىَّ بوجه ضاحك، يمشى وحده أو يسحب بقرة أو جاموسة. وما أن أعتدل وأبدأ فى الابتعاد، حتى يلاحقنى نفس الصوت عاليًا: اتفضل.

كيف يحدث ذلك فى القرى كلها؟ أسأل سليمان، ويقول: طبعًا.

-2-

كنت سعيدًا وأنا أعيد قراءة صور هذه الخطابات التى أرسلتها إلى جونيور عن فترة إقامتى بالمحلة الكبرى. كنت

سعيداً؛ لأننى استعدت صورة الناس والأماكن والكثير من التفاصيل التى كانت غابت. التفاصيل هنا حقيقية لأننى دونتها وقت حدوثها نزولاً على رغبته. وهى عكس الكثير من التفاصيل الأخرى التى حكيتها بعيداً عن هذه الخطابات بعدما افترضت أنها حدثت، لكى أرمم فجوات تلك الأيام التى ابتلعها النسيان، حتى أيقظنى رحيل توفيق.

كثيراً ما أقول لنفسى إن الواحد وقد أوشك على الانصراف لن يمكنه أن ينسج رقعة متماسكًا عن ماضيه إلا عبر خيوط مما حدث وما لم يحدث.

–3–

جونيور.

هل تذكر المرأة الشابة التى خرجت لى من بين أعواد الذرة الكثيفة، والتى كانت برفقتها البنت الصغيرة ؟ أنا لم أمر أبداً بحقل مثله إلا وتمهلت، ما أن أصل إلى الموقع الذى قدرت أنهما خرجتا منه، هذه بضفيرتها الطويلة التى كادت تصل إلى قدميها، والأخرى برسالتها إلى الرجل فى المحطة. حقول الذرة ضيعتنى. لم أعد أعرف خارج أى زمام وعند أى حقل تقابلنا.

وأنا الذى فارقتهم مطمئنًا إلى رؤيتهما تبين لى أن الحقول فى هذه القرى لا أول لها ولا آخر.

ذكراهما تعنَّ بين آن وآخر. أرانى واقفًا إلى جانب الطريق الضيق وكادر الدراجة بين فخذى، أستند بقدمى اليمنى إلى الأرض مائلاً ومرفقى على مقربة من صدر المرأة الشابة الممتلئ تحت طرحتها الخفيفة السوداء. البنت الصغيرة ترفع وجهها المدور وضفيرتها تكاد تلامس الأرض، وأنا ألتفت من جنب إلى وجه المرأة الخمرى المائل، وذلك الأثر من كحلها المغسول فى عينها الكبيرة القريبة تحت حاجبها، والمساحة العارية البضة ما بين طرف العين الخارجى ونهاية قوس الحاجب؛ حيث الثقوب الدقيقة لشعره المنزوع.

-4-

جاءوا يدعوننى إلى الجلوس معهم وأكل البطيخ. وعند باب الحجرة نظروا إلى الصور والأوراق المبعثرة على الكنبة وسألونى متى سوف أعيدها إلى الحقيبة حتى يستطيعوا أن ينظفوا الحجرة من أجلى ويرتبوا المكان.

هم معذورون بعد ما فاتهم أنى توقفت عن أخذ الأمور بجدية دون أن أخبرهم بذلك، وأننى كنت قرأت مرة أن أعظم

مكافأة يمكنك أن تمنحها لنفسك فى نهاية أيامك هى أن تنفض عنك كل المثل العليا التى عشت عبدًا لها طوال سنوات عمرك. وأن ترتدى أو لا ترتدى الشبشب والجلباب، أو تكتفى بفانلتك نصف الكم مع سروالك الداخلى، وتتجول حرًا داخل شقتك بعدما ينصرفون، شأنك فى ذلك شأن طائر يحلق أو يجلس يدخن سيجارته بين أغصان شجرة أو سياج، أو مثل سمكة فى بحر أو بركة ماء. من دون أن تكون لديك آذان صاغية على الإطلاق. أنت رجل متعب الآن يمكنك أن تستلقى أينما تشاء وأن تنهض وقتما تشاء. صحيح أن الكبر لم يبلغ بك هذا الحد، ومازلت تشعر أحيانًا ، رغم مخاوفك، أنك بحال لا بأس بها، ولكن حالك التى لا بأس بها أحيانًا يجب أن تكون سرك الصغير. فإذا وجه أحدهم إصبعه إلى هذا الأثر الصغير من بقع البطيخ على صدر جلبابك أو فانلتك البيضاء فابتسم كمن وضعه هناك برغبته. حاذر إذن أن تهتم. اترك أشياءك مبعثرة على الكنبة كما هى، وأعلم أن الدنيا لم تكن أبدًا هى الدنيا، وأن الناس لم تكن أبدًا هى الناس.

كان ذلك هو الأمر

-1-

كانت القرية الأولى التى أبدأ منها جولتى اسمها " دنوشر ".. وهى خارج حدود المحلة ومدخلها على سكة سفر.

على يمين هذا المدخل الرئيسى كانت شونة صغيرة أجولة قمح، وحولها سور من سلك شائك، وفى الناحية اليسرى يوجد دكان صغير أسفل مبنى لم يكتمل من الطوب الأحمر وأعمدة المسلح النحيلة العارية. أبوابه الخشبية المدهونة بلون أزرق باهت مفتوحة إلى الجانبين، وأمامه عدة طاولات مدهونة بلون الباب ومقاعد قديمة من القش مرصوصة كلها فى ظل شجرة "البانسيانا" هى والزير الكبير. فى موعد وصولى صباحًا أصادف واحدًا شبه نائم، أو لا أحد على الإطلاق.

أتقدم بالدراجة فى هذا المدخل المنحدر، تلاحقنى صفارة وابور الطحين المتقطعة.

-2-

مداخل القرى لا تشبه مدخل القرية الأولى. أتقدم بالدراجة على المدقات الضيقة التى تحفها الترع أو القنوات الضيقة من ناحية، والحقول المزروعة أو غير المزروعة. أظل أتقدم حتى أصل دوار العمدة، حيث صندوق البريد الصغير المعلق. أنتهى من عملى وأستمر مغادرًا الزمام حتى أصل القرية الأخرى.

كل القرى متشابهة: الرائحة الحارة التى أشمها أثناء مرورى وأشعر بها إذ ما غادرت إلى الهواء الطلق. الفلاحون القلائل الذين أصادفهم فى ذلك الوقت من النهار متشابهون أيضًا. الدور المقامة من الطوب اللبن، وتلك الطبقات العالية من عيدان الذرة الجافة التى تغطى أسطحها. البوابات المتسعة قليلاً، والتى تنحدر إلى حوش الدار شبه المعتم والذى ألمح فى نهايته باب من خشب، وعلى مقربة منه، غالبًا مدخل آخر مفتوح، علمت أنه فى هذه الحالة، يكون مدخل للزريبة.

كل القرى إذن متشابهة. أكثر الدُور التى أمر بها لها طابق ثانٍ به حجرة واحدة على الواجهة لها نافذة مغلقة يسمونها المندرة. بعد ما استلم منى خطابًا أصر شباب من عمرى على دعوتى لشرب الشاى فى داره. صعدنا سلمًا طويلاً فى جانب من الباحة الداخلية المفتوح نصفها على السماء.

ورأيت الكانون والحصير المفروش والصندوق الكبير والزير ومدخل القاعة المفتوح. ولما مشينا على الجزء المغطى من السقف وجدته يهتز ويلين تحت قدمى. وعند الواجهة كان الجزء المغطى عليه حجرة مبنية باللبن ومطلية بالجير الأخضر الباهت. أخرج مفتاحًا وفتح الباب. كان الهواء مكتومًا وطاقم من المقاعد المكسوة القديمة وفى الجدار طاقة مستطيلة مسدودة بها بعض الكتب ولفافات من الورق. فتح النافذة وجلسنا ندخن ونتكلم ثم سمعت نقرًا على الباب وخرج هو وعاد بصينية نحاسية عليها أطباق من البيض المقلى وقطع الجبن القديمة والقريش وصحن من العسل الأسود وأرغفة رقيقة بيضاء. وبعدما أكلنا دخنا مرة أخرى وشربنا الشاى وانصرفت.

–3–

بالأمس، شاءت الظروف أن أتعرف عن قرب على ذلك الحمار الذى يركبه سليمان؛ ليمر به على مجموعة القرى الموكلة إليه. وهى المعرفة التى جعلتنى أعيد النظر بالحمير جميعًا. أنا الذى تصورت أن هذا المخلوق مجرد نسخة واحدة تم تكرارها.

والحمار، طبعًا، كان متوفرًا طيلة داخل الخمسة عشرة قرية التى أمر بها، مركوبًا أو خالى الظهر أو محملاً بالزرع أو بالطين،

بل هو متوافر داخل المدينة ذاتها. أينما وليت وجهك لا بد وأن يصادفك حمار.

كان ذلك هو الأمر حتى أمس. عندما عدت ووجدت سليمان عاد قبلى والتقينا فى حديقة المكتب ووقفنا نتكلم على جنب. أثناء ما كنا نضحك فوجئت بمن يدفعنى فى مرفقى من الخلف، وعندما استدرت رأيت حمار سليمان، وهو يباعد ما بين شفتيه وينظر إلىَّ بعينين جميلتين، وقد ارتسمت على وجهه المرفوع ابتسامة لا شك فيها. تراجعت إلى الوراء ورحت أتأمله. أجسام الحمير كلها تمتد مع رقبتها وسطح دماغها المدلاة فى خط أفقى، بينما وقف هذا فى بردعته التى كساها سليمان بقطعة من القطيفة الخضراء وقد رفع رقبته إلى أعلى ومال بوجهه ناحيتى وهو يهزه مبتسمًا وقلت:

" إيه الحكاية دى، هو الحمار بيضحك والا إيه؟ ".

وسليمان قال:

" طبعًا. الحمير مش زى بعضها ".

لم تكن صماء تماماً

-1-

فى أيامى الأخيرة، كنت بدأت أحبها بعدما عرفت المزيد من شوارعها ودروبها المعتمة وعمال المقاهى الصغيرة وعشاق الليل فيها، وهو الأمر الذى لاحظت أنه أدهش زملاء المكتب الذين أرجعوا ذلك إلى كونى مصراوى، وأزال الكثير من تحفظهم القديم فى علاقتهم بى. وبعد ما جرى لسليمان أخبرتنى دعاء أنه كان بذل جهداً عند جدتها فريدة حتى يرضوا بى ساكناً، لأن أحداً فى المدينة لم يكن يقبل سكنى العزاب إلا نادراً. كما علمت أن هذه الجدة لم تكن صماء تماماً، ولكن أحداً لم يكن بوسعه أن يعلم مدى صممها، وعندما أسهر عندها ليلاً مع دعاء التى صارت صديقتى، كانت تسمع أشياء ولا تسمع أخرى. لم يكن بوسعك أبداً أن تعرف حقيقة ما سمعت حتى لو تطلعت فى عينيها، الأمر الذى كان يضفى على السهرة جواً من الريبة والمرح.

-2-

كان موسى أقصر الزملاء قامة. وهو كان يتحرك بسرعة من هنا إلى هناك. لم يكن يستقر أبدًا فى مكان. أنت تراه مقبلاً ناحيتك ليعبرك بسرعة متجهًا إلى الناحية الأخرى. أو تراه وقد أتى من هذه الناحية الأخرى ليمر بجوارك ذاهبًا إلى هناك. وفى أى وقت تراه لا بد وأن تكون فى إحدى يديه مجموعة من الرسائل أو قائمة مطوية، وفى اليد الأخرى قلمًا مبريًا. وعندما كنا نلتم ثلاثة أو خمسة نتحدث ونحن واقفون فى أى مكان، كان يتقدم بسرعة وينضم إلينا. يقف بيننا ويرفع وجهه يتابع الكلام بعينيه المنتبهتين ثم لا يلبث أن يندفع فورًا إلى هذه الجهة أو تلك. وكان عبد الغفار يعبث بعلبة دخانه، وهو يرمقه مبتسمًا بجانب عينه ويهمس: ما تشغلش بالك. هو كده.

وكان موسى هذا هو الذى رأيته ينتظرنى فى حديقة المكتب، ظل حتى ركنت الدراجة واعترضنى. وقف أمامى بعينيه شبه الملونتين، وقال:

- سليمان ما رجعش.

وأنا ابتسمت فى وجهه ولم أفهم.

قال: " هو ما رجعش".

وأشار بيده إلى الحمار الواقف: "لكن الحمار رجع".

وتركنى وأسرع يدخل المكتب.

-3-

لم يكن أحد يعرف لماذا عاد الحمار وسليمان لم يعد. البعض كان مشغولاً بعمله والبعض لم يعر الأمر اهتمامًا وأنا لم أعرف إن كان هذا شيئًا عاديًا أم أنه يدعو إلى القلق. عندما رأونى قالوا بمرح " صاحبك فين؟ " وانشغلنا جميعًا. كنا اقتربنا من آخر النهار وعبد الغفار عرض على أن آخذ عجلتى، ويأتى هو بعجلة أخرى ونذهب حتى آخر القرى التى تنتهى عندها دورته ونسأل عنه. قال إنه يعرف الطريق، بعدما رحبت بذلك طلب من وديع أن يعد لنا كوبين من الشاى ولف سيجارة قدمها لى، وبينما ندخن ونشرب الشاى دخل الأستاذ فؤاد وهبة مدير المكتب، واتجه إلى مقعده، وهو يقول إن سليمان فى المستشفى القريب:

- المصيبة إن شنطة المصلحة مش معاه. إسألوه عنها.

وأسرعنا إلى هناك.

-4-

كان نائمًا وظهره مستند إلى الوسائد المرفوعة عند رأس السرير. فى البداية لم أنتبه إلى أنه سليمان بشعره المنكوش والجلباب الكستور بخطوطه البنية العريضة الذى يلبسه. بدا

أنه رآنا ولم يعرفنا. وعبد الغفار تقدمنا ومد يده يصافحه ويقول:

- سلامتك يا شاعر.

ولكن سليمان تطلع فقط بعينين مليئتين بالذهول، ولم يبد فيهما أى تعبير آخر. نظروا إليه حائرين، ثم دفعونى نحوه، ولكن عينيه مرتا بى دون أن يستوقفه وجهى، ولا أى وجه آخر، ولم يكن يتكلم.

الممرضة قالت إنه هكذا منذ جاء. اتجهنا إلى الطبيب وعبد الغفار قال:

- إيه الحكاية يا دكتور؟

- هو غالبًا تعرض لصدمة أو مفاجأة غير متوقعة. بكرة يكون كويس.

وعندما كنا فى طريقنا إلى العنبر مرة أخرى، قال الطبيب:

- هو الأول كان كويس؟ يعنى بيتكلم عادى؟

قلنا: طبعًا.

قال: طيب حاولوا تعرفوا منه إيه اللى حصل.

الشاعر والذئاب

-1-

مضت أيام وسليمان زائغ العينين لا يتكلم. الطبيب كان أخبر مدير المكتب أن يمنحه إجازة يعود فيها إلى مصر لكى يستريح ويستعيد نفسه.

أول أمس كنت ذهبت إلى المستشفى لرؤيته، ورغم أننا كنا وجدنا فإنه لم يرد على تحيتى ولم يعرفنى، وعندما اقتربت منه حدق فىَّ بريبة وانكمش إلى آخر الفراش. الممرضة الشابة قالت إنه منذ جاء لم ينطق بكلمة، وأنا فكرت ولم أتمكن أبداً من تصور السبب الذى جعله يصبح هكذا.

-2-

ما إن دخلت المكتب حتى وجدتهم يجتمعون حول رجل نحيل له لحية قصيرة بيضاء. أخبرونى أنه الشيخ رضوان صديق

سليمان وحارس بساتين البرتقال فى وقف الأميرة شويكار. والشيخ الشاب هب واقفًا وهو يقول:

- أنت الأخ عبد الله. أنا عارفك.

صافحته وجلست.

وهو تهيأ وقال إن الحكاية حدثت فجأة ولم تكن متوقعة. كان سليمان قد مر علىَّ مثلما كان يفعل كثيرًا. حدائق الوقف فى منتصف الطريق تقريبًا بين القرية الأولى والأخيرة. هكذا يمر نشرب الشاى ويسمعنى أبياتًا من شعره ونحن تحت الأشجار حتى يستريح وينصرف. حينئذ انتهى عبد الغفار من لف السيجارة وناولها إلى الشيخ رضوان، وقال ما رأيك يا فضيلة الشيخ إن أحدًا من الذين يجلسون معك الآن لم يسمع بيتًا واحدًا من هذا الشعر. رحنا نضحك بينما قال الشيخ إن سليمان شاعر جميل ولكنكم تهزءون من شعره قبل أن تسمعوه. وبلل طرف السيجارة بطرف لسانه وراح يعيد لصقها وقال إن سليمان ركب الحمار وانصرف فى هذا اليوم كما اعتاد. إلا أنه فوجئ بعد قليل بضجة خارج السور وعدد من عمال الطرق يدخل وهم يحملون سليمان والحقيبة الجلدية على صدره والجميع غارق فى الماء.

يقول الشيخ إنه لم يعرف ماذا جرى لسليمان. ولكنهم - على أية حال - خلعوا عنه ثيابه الحكومية وقاموا بتجفيفه وألبسوه جلبابًا من الكستور وجعلوه يستريح على الدكة وأن سليمان استغرق تمامًا فى النوم. وبعد ذلك جلس هو مع عمال الطرق يشربون الشاى ويتحدثون. قالوا إنهم كانوا فى الجانب الآخر من الطريق يقومون بعملهم (كل واحد منهم يمسك حبلاً طويلاً فى نهايته دلو صغير يقذف به إلى المصرف، ثم يسحبه ممتلئًا بالماء، ويقوم برش هذا الماء على التراب والناس تمشى عليه هى والحيوانات والتراب يتماسك) كانوا مشغولين بذلك بينما غادر سليمان الحدائق، وتقدم فى السكة الضيقة الموازية لهذا الطريق. بعد ذلك خرج الذئب الكبير وقطع عليه السكة ووقف يلهث ولسانه مدلى من فمه المفتوح. يقول الشيخ رضوان إن سليمان لم يعرفه وربما ظنه كلبًا. ولكن إذا كان سليمان لم يعرف الذئب فإن الحمار عرفه فورًا، وتشبث بقوائمه وتقوس ظهره وأصدر نهيقًا هائلاً التفت عمال الطرق على أثره ليروا الحمار يندفع محلقًا وسليمان يعتليه ليسقط الجميع فى ماء المصرف. وهم أسرعوا خلصوا سليمان وحقيبته من تحت الحمار الذى أسرع يتسلق الشاطئ، ويظل يعدو حتى عاد على هنا.

-3-

قال الشيخ رضوان إنه سليمان ظل نائمًا حتى آخر النهار، وأنه اضطر ينبهه، وعندما قام وجده ينظر إليه مستنكرًا، لا يرد عليه ، ولا يعرفه. حينئذ اتصلوا من تليفون العمدة بحضرة المدير الذى تصرف مع المستشفى التى أرسلت عربة ، وفى اليوم التالى أخرج محتويات الحقيبة وجففها فى الشمس، وجاء الآن ليعيدها.

عندما خرجنا فى وداع الشيخ قال إن سليمان كان يحدثه عنى كثيرًا، ولكن الشىء الذى يدهشه ، أن الحمار عندما هرب من موقع الحادثة عاد وحده إلى المكتب وظل واقفًا. مع إن المفروض أنه كان يلجأ إلى حديقة البرتقال باعتبار إنه حمارى.

- وأنا سالت:

هو الحمار بتاعك ؟

- طبعًا. المكتب كله عارف إنه مأجره منى.

وأضاف، على العموم لما ربنا يأخذ بيده ويرجع يتكلم، أنا والحمار، تحت أمره. وطلع بقدمه على السور القصير، ورفع الأخرى. وربت بيده على رقبة الحمار وانصرف.

شعرها ململوم إلى الخلف

-1-

انتهيت من دورتى اليومية وعدت إلى المدينة. قبل ذهابى إلى المكتب اتجهت إلى المستشفى ورأيت رجلاً آخر ينام على السرير الذى كان سليمان يشغله. والممرضة أقبلت ناحيتى من آخر الطرقة وهى تفتح فمها بابتسامة واسعة. ورغم أن أسنانها الكبيرة البيضاء كانت تبدو واضحة مع لثتها الوردية فإنها كانت جميلة بوجهها الخمرى، وعينيها الكبيرتين، وقد ضيقهما الابتسام.

مدت يدها صافحتنى وقالت:

أهله أخذوه

- اتكلم؟

- ولا كلمة. هو ماله؟

قلت:

أبدًا.

وسحبت الدراجة وابتعدت.

–2–

كلما مضى الوقت بدا ما جرى مثل مفاجأة غير مفهومة. الذئب قطع عليه طريق الغيطان أثناء قيامه بالعمل. هو لم يعرف أنه الذئب، ولكن الحمار عرف وقفز به فى المصرف. عمال الطرق أنقذوه وهو خرج من الماء زائغ العينين عاجزًا عن النطق. كلما رددنا ذلك لأنفسنا أو لمن يسألنا يتبين لنا أنها حكاية هزلية ولا يقدر أحدنا أن يمسك نفسه عن الضحك أو الابتسام. وها هو الأمر يصل إلى حد حضور أهله وحمل عفشه القليل وثيابه والعودة به إلى مصر.

عندما دخلت من باب المكتب وحقيبة المصلحة فى يدى تطلعوا إلىَّ جميعًا وتوقفوا عن الكلام. كانوا يعرفون العلاقة التى جمعت بيننا. منذ اليوم الأول الذى جاء فيه لاستقبالى وهو يتعامل معى وكأن بيننا قرابة كانت توقفت، ثم حان

استئنافها. وعبد الغفار لف سيجارة أشعلها لى وعرفت أن الأستاذ فؤاد مدير المكتب كان اتصل بمصر وطلب سرعة نقله كى يكون مع أهله وتحويله إلى القومسيون الطبى، بعدما أكد تقرير مستشفى المحلة على ضرورة خروجه؛ لأنه يعانى مرضًا لا يمكنهم علاجه. توقف عن الكلام ولم يعد يعرف الناس الذين كان يعرفهم. المصلحة وافقت على نقله وأبلغوا أهله؛ لأن أمه جاءت برفقة خاله واستلموه وانصرفوا.

–3–

كانوا يراقبوننى لكى يروا تأثير ما حدث. أنا تساءلت؛ لأنه كان زميلاً لهم قبل حضورى بكثير. ولكنهم أخبرونى أن سليمان مستجد هو الآخر ولم يستلم العمل قبلى إلا بشهرين أو ثلاثة. أدهشنى ذلك تمامًا. كنت على ثقة من أننا سنلتقى خصوصًا أننى كنت فى انتظار خطاب نقلى أنا الآخر. سوف أعرف عنوانه وأزوره ونواصل علاقتنا بالقاهرة كما كنا بالمحلة. ليس ممكنًا أن ينتهى الأمر هكذا؛ لأن سليمان سوف يهدأ مع الوقت ويتكلم ويعرف الناس الذين يراهم. ليس معقولاً أن يؤذى الذئب أى إنسان بمجرد ظهوره له من دون أن يعضه أو يأكله مثلاً.

وخطر لى أننى لن أعرف كيف أحكى لتوفيق أو حمادة أو غيرهما حكاية الذئب مع سليمان الشاعر دون أن يسخروا من الأمر أو على الأقل يضحكوا منه.

تناولت غذائى بالمطعم الصغير فى شارع البحر وعدت إلى البيت ونمت.

-4-

قمت من النوم على يد دعاء وهى تربت على كتفى. كانت اعتادت أن تدخل الحجرة تجلس على حافة الفراش وتوقظنى.

سألتنى عن سليمان وأخبرتها أنه رحل وردت بأنها تعرف وأطرقت وأضافت أن نور سوف تجن من أجله. ولما قلت:

نور مين؟

قالت إنها ابنة أصحاب البيت الذى يسكن فيه، وأن أبيها رفض زواجه منها بسبب شعره الطويل مثل النساء، وسليمان الذى لا يستطيع أن يبعد عنها أبداً رفض أن يحلقه. كما قالت إن نور زميلتها من أيام المدرسة.

كانت هذه كلها أشياء مفاجأة بالنسبة إلىَّ. وانتابنى الإحساس بأننى أوشك على التورط فى شىء لا أعرفه وتملكنى القلق. وشعرت بأننى وحدى.

–5–

فى الصباح، عند حافة حديقة المكتب من الخارج اقتربت منى وقالت:

– صباح الخير. أنا نور.

قلت: أهلاً وسهلاً.

كانت فتاة سمراء ترتدى فستانًا عاديًا بياقة مغلقة، شعرها ملموم إلى الخلف ووجهها مدور، ممتلئة قليلاً كأنها أم. قالت:

هو سليمان سافر مصر ؟

قلت:

آه

قالت:

ابقى هات العنوان. ولما تشوفه، قول له نور بتسلم عليك.

وتركتنى وابتعدت.

لوَّح بيده مودعًا

-1-

فى كل صباح، كنت ألمح البنت نور، وهى تنتظرنى إلى جوار السور الخارجى لحديقة المكتب. كانت ترانى حتى تطمئن إلى أننى رأيتها، ثم تستدير على مهلها لتتصرف. وأنا الذى لم أكن عرفت شيئًا عن سليمان، أظل واقفًا أتابعها وهى تمشى بين الناس.

-2-

كل يوم كنا نتوقع خبرًا أو آخر عن سليمان. كنا نسأل مدير المكتب إن كانت هناك أخبار، وكان يقول إنه آخر ما سمع أنه موجود بمستشفى السكة الحديد فى مصر. وفى كل قطار توجد عربية خاصة بالبريد. زملاء يسلمون البوستة الصادرة من المحلة ويستلمون الواردة إليها، وكذلك وأكياس النقود لصرف المرتبات والحوالات وغيرها. وكل يوم كنا نوصى هؤلاء

الزملاء أن يعرفوا شيئًا من أخبار سليمان. وهم كانوا يعرفون حكايته مع الذئب فقط ولا يعرفون شيئًا آخر.

-3-

من ناحيتى، لم أستطع أن أنظر إلى حكاية سليمان مع الذئب والحمار باعتبارها حكاية عادية أبدًا. قبل رحيله كنت أنتهى من دورتى مسرعًا لأن هناك ما ينتظرنى فى المدينة. الآن وقد رحل تبدلت علاقتى بكل شىء. كنت أذهب ليلاً إلى المقهى حيث يجلس الزملاء، ثم توقفت بعد ما لاحظت أن وجودى يسبب نوعًا من الحرج على القعدة. موسى أقصر زملاء المكتب كان الوحيد الذى يتقرب منى ويتفرس فى وجهى ولا يقول شيئًا. بعد ذلك اكتفيت بالوقت الطويل الذى كنت أقضيه مع دعاء فى حجرتى أو حجرة جدتها العجوز شبه الصماء (مع الوقت عرفت أنها ليست حفيدتها لكن حفيدة ابنتها).

-4-

فى الأيام الأخيرة لى بالمدينة. كنت أقود الدراجة متمهلاً وأعود إلى المكتب متأخرًا. كما كنت ألبى دعوة من يدعونى

لشرب الشاى سواء أكان داخل الدور أم فوق المصاطب الطينية الممتدة على جانبى المداخل المنحدرة. كما وجدتنى أكثر ميلاً لتأمل كل ما أسرعت بالمرور عليه كل يوم. ليست المسافة طويلة بين قرية وأخرى وتلال المقابر غالبًا على مشارفها. لكنك ترى الحقول خارج الزمام واحدًا وراء الآخر، ممتدة إلى ما لا نهاية كأنها رقع فى كليم هائل مختلفة الأحجام والألوان بسبب اختلاف نوع الزرع وطوله. زرع طويل وآخر قصير أقل كثافة ورقع محروثة والماء يلمع بين خطوطها الطينية الممتدة. لقد رأيت الساقية والشادوف ورأيت الرجل يرفع الماء بالطنبور وساقيه فى الماء ورأيت النورج، وهو يدور فى الجرن ورأيت أشجار السنط والكافور وأشجار التوت والجميزة الكبيرة والتين الشوكى بألواحه العريضة وثماره الناتئة فى حواف هذه الألواح بشوكها المنثور. صرت أعرف الذرة والقطن مادام مزهرًا كما عرفت القمح وتموجات سنابله بشعيراتها الذهبية، إذ يأخذها الهواء من هنا. بالأمس غادرنا مصطبة، ونزلنا إلى التخضيرة المزروعة باحتياجات الدار، ورأيت الشجيرات القصيرة المحملة بالفلفل الأخضر الحامى والباذنجان الرومى وشجيرات الطماطم الراقدة فى الحوض

الذى سيجته أشجار النارنج والليمون التى تفوح رائحتها كلما ابتعدت عن المكان. لقد قطف مضيفى حبة الباذنجان الرومية بلونها العسلى من بين أوراقها العريضة الغضة. كانت شهية بقشرتها المشدودة اللامعة ولحمها الأبيض وحبوبها الحلوة الطازجة.

-5-

كانوا اتفقوا أن يقيموا فى الغد حفلاً صغيرًا لوداعى. وقد غادرت المكتب نهاية اليوم وتناولت غذائى بالمطعم الصغير وجلست أفكر. كان على أن ألملم أشيائى وأربطها؛ لكى يتم حملها إلى عربة البضائع فى القطار. وفكرت فى الجدة فريدة والبنت دعاء وماذا سوف أقول. كنت جاوزت الثامنة عشرة بالكاد ولا ينفع أن أتزوج. فكرت فى البنت نور التى تأتى كل يوم وتنتظرنى عند السور الخارجى لحديقة المكتب؛ لكى أخبرها شيئًا عن سليمان وكيف أنها لن تجدنى بعد الآن.

لم أعد إلى البيت. ظللت على رصيف المقهى أقرأ وأشرب الشاى والمحطة أمامى عبر الجسر. فكرت أن أنتظر حتى

يقترب القطار واتجه إلى هناك كمن يتمشى. أترك كل شىء وأعود إلى مصر.

-6-

ما أن صعدت سلم العربة واستدرت حتى تحرك القطار بضجيجه المألوف. وانتبهت إلى أن موسى يقف هناك بقامته القصيرة. كنت أراه عند انحرافة الرصيف وهو يميل، ويلوح بيده مودعًا.

بعيداً عن العيون

-1-

أفكر الآن فى أيام المحلة وأشعر بالوحشة والرضا. انتبه أن الكثير مما حكيته هنا قد حدث وأن الكثير أيضًا لم يحدث. اختلط الوهم عندك بالحقيقة وأنت تصطنع أيامك التى مضت. لكنها تبقى حياتك تلك التى يمكنك أن تحكيها.

-2-

هكذا يمكنك القول إن القطار ما أن غادر المحلة فى طريقه إلى طنطا حتى جلست جوار النافذة تلوم نفسك وأنت تتابع أعمدة التلغراف وتفكر. كيف تركت ثيابك وكتبك وأشياءك وغادرت هكذا دون أن تحمل شيئًا أو تودع أحدًا. فكرت فى ذلك كله ولم تشعر بالارتياح. غادرت القطار فى محطة طنطا واشتريت رغيفًا وجبنًا روميًا واتجهت إلى ميدان الساعة.

جلست بالمقهى وشربت الشاى وركبت القطار الآخر حتى المحلة ومشيت فى الشوارع شبه الخالية. عدت إلى البيت وأغلقت الباب.

-3-

كلما حكيت للعم دهب عن رحلة المحلة وسليمان الشاعر والذئب والجدة شبه الصماء والبنات وحدائق البرتقال والآخرين حتى كان يميل إليك بوجهه الأسود المشدود وعمامته الكبيرة البيضاء ويقول: أنت لازم تروح هناك.

تخبره أن ذلك حدث قبل سنوات طويلة ولا أحد يعرف الآن أين هؤلاء الناس. حينئذ كان يفكر ويضيف متأثرًا بصوته النحيل: خسارة يا شيخ.

والعم دهب أحد كبار البوابين فى قصر الدوبارة. كنت اعتدت أن تجلس إليه بعدما ينتهى العمل. للعمارة بضعة سلالم عريضة تبدأ من نهاية الرصيف وتمتد داخل الحوش الواسع، ثم تصعد فى اتجاهين عند المصاعد. فى المساحة العالية بين هذين الجناحين توجد طاولة ثقيلة من خشب الأرو وراءها دكة داكنة يمكنك أثناء مرورك بالميدان أن ترى العم دهب وهو يجلس هناك بأكمامه الواسعة.

كان يجيد خمس أو ست لغات، وله ولدان يستكملان تعليمهما بأوربا ويخفض صوته، وهو يميل بوجهه الممتلئ، ويقول عن الأثرياء الجدد الذين حلوا محل باشاوات المنطقة القدامى إنهم محدثى نعمة: " أنت يعرف محدث نعمة؟ هى دى محدث نعمة ".

-4-

بين زمن وآخر كان يستدعى أجيالاً من شباب العائلة، يتدربون على العمل فى السلالم الخلفية لسنوات قبل أن ينضم أحدهم إلى العاملين فى المدخل الرئيسى. وفى هذه البناية كانوا جميعًا أبناء عائلة واحدة؛ لذلك كانوا قادرين على ستر نشاطهم عن الجميع. وكانت رأس السنة على الأبواب. ومعظم الأثرياء يحتفلون بهذه المناسبة خارج البلاد. حينئذ كان الطباخين والسفرجية وبعض الخدم والخادمات يختارون إحدى الشقق الخالية ويتجهون إليها حاملين ثياب السهرة الخاصة بسادتهم مع كل المشروبات التى قضوا العام فى تدبيرها بصورة أو أخرى. إنهم يخلعون الجلابيب البيضاء ويرتدى كل منهم ثيابٌ سيده أو سيدته ويقضون سهرتهم يأكلون ويشربون

ويرقصون ويغنون حتى الصباح ويبدلون ثيابهم ويعيدون كل شىء إلى مكانه ويتسللون من أبواب المطابخ الخلفية إلى السلالم الحديدية وينصرفون. كانوا وثقوا بك وكنت تلبى دعوتهم لقضاء وقت من السهرة؛ حيث تجلس فى أحد الأركان بينما تتقدم منك إحدى الخادمات فى فستان سيدتها بصدره العارى تضع لك صحنًا ممتلئًا بالطعام على الطاولة الصغيرة المجاورة. لم يكن الأمر هزلاً. لقد كان طقسًا بالغ الجدية يتداولونه فيما بينهم. تجلس وتراهم فى الضوء الشحيح والموسيقى الهادئة وهم يقفون أو يتجمعون على المقاعد الكبيرة يشربون ويدخنون ويتحدثون مثلما يفعل أسيادهم بالضبط. كان سعيد ألمونيا يستقبلك، وهو ينحنى نصف انحناءة بقامته الممتلئة السمراء فى بذلة رجل الأعمال الذى يعمل لديه. كان يفعل ذلك ويتقدمك مفسحًا لى الطريق إلى أحد المقاعد بينما الكأس فى يده والسيجار الغليظ فى جانب فمه المنفرج. كان يقف أمامك يمد أصابعه إلى رقبته يضبط البابيونة السوداء وهو يتطلع إلى عينيك مرحبًا: " أهلاً أهلاً عبد الله باشا ". ويصب لك كأسًا، ثم يبتعد متمايلاً وسط الزحمة ليعاود لجلوس. يتراجع إلى طهر مقعده ويضع ساقًا على ساق. وكانت

الشغالات يتمايلن فى فساتين السهرة بصدورهن العارية والحلى فى رقابهن وأيديهن، كانت الواحدة تشد الشال على وسطها وترقص ترافقها الأكف بالإيقاع. إذا جاءت عيناك فى عين إحداهن وابتسمت فإنها لا تستجيب أبداً وتعبر عيناك فى جدية أو استنكار.

خطابات وباشوات

-1-

الخطابات نوعان؛ خطابات عادية، وهى الغالبة، وأخرى مسجلة.

فى الأحياء الشعبية قد يسلم الخطاب العادى إلى صاحبه، أو إلى جار صاحبه، أو البقال، أو الخضرى القريب، أو من يتصادف وجوده. أما الخطاب المسجل، فى الحى الشعبى، فلا يسلم إلا لصاحبه، بعد الاطلاع على بطاقته، وإن أمكن التجاوز فى بعض الأحوال التى لا يوحى فيها الخطاب بشىء من الخطر، قد يسلم فى هذه الحالة إلى الزوجة، أو أحد الأبناء، أو ما شابه.

-2-

فى الأحياء الراقية يختلف الأمر تمامًا. الخطابات العادية والمطبوعات توضع فى الصناديق الخاصة الموجودة بحوش

المبنى، أو إلى البواب، أما الخطابات المسجلة فهى لا تسلم إلى أصحابها المباشرين، أصحاب الأسماء المكتوبة على العناوين. صحيح أنك تصعد إلى الشقة وتضغط على الجرس ويخرج لك السفرجى أو الخادمة، هى تتناول منك الخطاب والإيصال والقلم. تعود به موقعًا دون أن تعرف أبدًا من الذى وقع. وتأخذ أشياءك وتنصرف. بعض هؤلاء الميسورين قد يطلب منك أن توقع بدلاً منه وتتركه بالصندوق كأنه أحد الخطابات العادية، وأنت تعتبر ذلك نوعًا من الثقة، والبعض قد يطلب منك حزمة من الإيصالات يوقعها سلفًا، وكلما وصله خطابًا مسجلاً، استخدمت أنت إيصالاً واحتفظت بالباقى. هذه الإيصالات شرائط مصمغة من الخلف، عند عودتك إلى المكتب يسلمونك الدفتر التى قيدت به أسماء أصحابها وعناوينهم فى خانات متعاقبة، وأنت تلصق كل إيصال يحمل التوقيع فى الخانة التى أمام اسمه.

-3-

فى تلك الأيام لم تكن قصر الدوبارة ازدحمت تمامًا بهذه الفئات من الأثرياء الجدد. وكان بوسعك أن تجد من يخبرك أن

هذا الرجل الذى هناك هو أحد الباشاوات القدامى. جعفر باشا عمران لم يكن باشا حقيقيًا بل أحد هؤلاء الأثرياء. رغم صغر سنه نسبيًا كان يمتلك مجموعة كبيرة من الشركات والمشروعات العقارية وغيرها. كلما غادر يثير الجلبة بين العمارات. كان يستمتع بإزالة الفوارق بينه وبين من يصادفهم أثناء خروجه. لا يكف عن مداعبة البوابين والخدم وبنات الصيدلية والفكهانى. بينما رجال حرسه يضعونه تحت عنايتهم من بعيد، والعربة تتبعه عن قرب. يتناول حبات الفاكهة المرصوصة ويشمها: " عامله إيه المانجة دى؟ " ويلقى بالحبة فوق القفص ويلتفت إلى سعيد ألمونيا، البدين الأسمر الذى يستضيفنى فى أعياد الميلاد السرية ويتبعه مثل ظله، ويقول: "خد شوية طلعهم". وهو ما أن يلمحنى حتى يصيح: " إيه أسعار البوستة اليومين دول ؟ " وينفجر ضاحكًا.. يتحرك فى ثياب شبابية واسعة، ويسرع فجأة إلى باب العربة المفتوح، ما أن يغلق وراءه حتى تتبعه عربة أخرى تحمل رجال حراسته. وهو كان أحد الذين طلبوا لى أن أوقع بدلاً منهم إذا ما وصل خطابا مسجل وأضعه مع الخطابات العادية. وكان سعيد ينظر إلىَّ ضاحكًا ويقول: " أصل انا معاه من أيام ما كان بيركب المازدا ".

-4-

لم يكن الباشا يفعل هكذا أبدًا. إنه يمشى متواريًا ناظرًا أمامه فى بذلة كاملة من الصوف الإنجليزى شتاءً، أو الكتان الأبيض أو السمنى صيفًا. متقدم فى العمر وثيابه محبوكة وفى جيبه العلوى منديل. وكان يقف فى المصعد وقد أعطى ظهره إلى المرآة ووجهه إلى المدخل بينما وقفت أنا فى الناحية اليسرى وفى يدى بعض الخطابات. وهو التفت ناحيتى التفاتة خفيفة وفى صوت سمعته بالكاد، سألنى بجدية: بيدوك كام؟.

كنت أتقاضى حوالى تسعة جنيهات، وقلت: خمستاشر.

قال: بيكفوك؟

قلت: يعنى.

هز رأسه، ونظر أمامه.

-5-

مرة أخرى كنت أستخدم السلم فى النزول. وبينما أنا فى طريقى إلى الطرقة التى تتقابل فيها أبواب الشقق المغلقة، رأيت أمامى فى العتمة الخفيفة، أحد هؤلاء الباشوات وهو يتكأ بركبتيه على المشاية أمام المدخل الموارب، كان الروب

النبيتى مفتوحًا حول ركبتيه، وهو يضع أمامه عدة تليفون سوداء سماعتها ملقاة إلى جوارها، وفى يده ماسورة قصيرة من الحديد، كان يرفعها ويضرب بها عدة التليفون ويحاول تكسيرها. وعندما عبرت أمامه بهدوء، وانحرفت أمام أبواب المصاعد المغلقة لكى أواصل نزولى، لاحظت أن العدة، رغم الضربات المسموعة، ظلت سليمة لم تتكسر.

التوقيع على الأقوال

-1-

عندما عدت من الوردية، استدعونى للنيابة الإدارية فى مبنى المصلحة. كان على المنضدة دفاتر الخطابات المسجلة التى جرى تسليمها، والمحقق فتح تحقيقًا سريعًا سألنى فيه عن اسمى كاملاً وسنى وعنوانى، وأدار الدفتر المفتوح ناحيتى ومد إصبعه إلى أحد الإيصالات الملصقة ، وسألنى عمن استلم هذا الخطاب. كان توقيعًا سريعًا باسم جعفر عمران. وكنت كتبته بخط يدى، وقلت إن صاحبه هو الذى استلمه. قال:

أنت متأكد؟

قلت:

طبعًا.

-2-

لم يكن من المعتاد أن يتذكر الواحد أية بيانات خاصة بكل خطاب على حدة. الخطابات يومية وكثيرة ومتشابهة. إلا أننى تذكرت هذا الخطاب بالذات. من ناحية، كان زمنًا طويلاً قد مضى من دون وصول أية خطابات مسجلة باسم جعفر عمران، ومن ناحية أخرى، فقد لفت نظرى أنه احد الخطابات الحكومية القليلة بلونها البنى الفاتح، والتى تكون، عادة، بدون طوابع، لفت نظرى، أيضًا، أنه كان صغير الحجم جدًا والعنوان مكتوب بالقلم الكوبيا فى خط ردىء مع ختم باهت ورقم تحوطه دائرة مفتوحة. وتذكرتنى وأنا أسقطه فى الصندوق وأوقع بسرعة على الإيصال بما يشبه اسم جعفر عمران. وعمومًا فإن الرسائل المسجلة الحكومية لم تكن تحظى بعنايتنا باعتبارها مجرد تنبيه عن شىء أو آخر. إنها ليست مثل المسجلات الأخرى بمظاريفها البيضاء بأرقامها الواضحة وطوابعها المصطفة المختومة.

-3-

لم شغل نفسى كثيرًا بالموضوع. ولم تمر أيام طويلة إلا ووجدتنى مطلوب فى النيابة العامة بقسم الموسكى القريبة من

المصلحة. ذهبت إلى هناك برفقة توفيق وحمادة والعديد من أفراد الأسرة. أصاب الخوف إخوتى بينما عصبت أمى رأسها وراحت تقدم لنا الشاى قبل ذهابنا وقد نزل عليها سهم الله وتوقفت عن الكلام. وعند خروجنا طلبت منى قبل دخولى إلى وكيل النيابة مباشرة أن أقرأ الفاتحة لأم هاشم، وخرجت وراءنا حتى مدخل البيت. وعندما وصلت إلى القسم انتظرونى بالخارج.

–4–

- اسمك ؟
- عبد الله محمد سليمان
- سنك ؟
- ٢٢ سنة
- عنوانك؟
- ٣ شارع أمير الجيوش بإمبابة

كان الدفتر الذى جىء به من المصلحة مفتوحًا على الطاولة فى مواجهتى. أمام كل اسم يوجد إيصال ملصق عليه توقيع من

استلمه. بعض الخانات خالية من الإيصالات وتحمل تعليقات مختلفة : عزل. لم يستدل عليه، تكرر إعلانه. أو توفى. وأشار وكيل النيابة إلى الخانة التى تحمل اسم جعفر عمران وإلى الإيصال ملصق الذى يحمل توقيعه.

- هذا الخطاب ؟

- نعم ؟

- هل قمت بتسليمه؟

- مادام له إيصال فلا بد وأنه تسلم.

- مَنْ الذى استلمه منك؟

- الخطابات المسجلة كثيرة جداً ويومية. ولا يمكن تذكر من الذى استلم خطاباً من الخطابات.

- عندك تعليمات تقول إن عليك الاطلاع على بطاقة صاحب كل خطاب مسجل قبل توقيعه وتسليمه له.

- هذا موجود فى المناطق الشعبية فقط. أما فى منطقة مثل قصر الدوبارة، فنحن نسلم الخطاب للموجود فى الشقة.

- من أهل البيت يعنى؟

- ممكن. السفرجى أو الخادمة يدخل بالإيصال ويعود به موقعاً.

- ولكن هذا مخالف للتعليمات.

- معظم سكان المنطقة شخصيات لا تكون موجودة ولا ينفع أن نترك لهم إشعارات لكى يأتوا ليوقعوا على الإيصالات. هذا الكلام كله أنا تمرنت عليه قبل ما استلم المنطقة. الجميع يفعل ذلك.

- تأمل هذا التوقيع. هل أنت الذى وقعته؟

- لا.

- هل تعرف مَنْ الذى وقعه؟

- لا.

- السيد جعفر عمران يقول إنه لم يستلم هذا الخطاب، ولم يستلمه أحد من طرفه. ولا يعرف هذا الخط.

- أنا متأكد إنى سلمته.

- طيب وقع على أقوالك.

قمت واقفًا واتجهت إلى كاتب الجلسة فى طرف الطاولة الخشبية ووقعت الأوراق المفرودة أمامى. كانوا ينتظروننى عند الناصية، وعندما رأونى أسرعوا يسألوننى عما جرى.

ربت على كتفى وانصرفت

-1-

بعدما عدت من نيابة الموسكى لم أكن قلقًا. كنت وضعت الخطاب بيدى فى صندوق البريد الخاص بهم. ليس معقولاً أن ينكروا استلامهم له. جعفر عمران رجل ودود وكلما رآنى يسألنى: " إيه أسعار البوستة النهاردة؟ ". وعندما رأيته أمام المبنى حدثته عن التحقيق الذى جرى، وهو تطلع إلىَّ وقال إنه لا يعرف شيئًا واقترح أن أسأل البلتاجى وانصرف. وعندما سألت سعيد السفرجى عن البلتاجى قال إنه المدير المسئول عن الشركات ومكتبه فى ميدان الأوبرا وأعطانى العنوان.

-2-

ذهبت إلى ميدان الأوبرا وأخبرت الأستاذ البلتاجى عن الخطاب والنيابة وأكدت له أننى وضعته بيدى فى الصندوق

وأنه مظروف حكومى صغير ولونه أصفر وهو هز رأسه، وقال إذا ظهر خطابًا بهذا الوصف سوف أعرف وربت على كتفى عند الباب وانصرفت.

عندما ذهبت وتوفيق إلى المقهى وجدنا خليل المحامى يتفرج على من يلعبون الدومينو وطوق الجلباب مفتوح على صدره. أخذناه جانبًا وشرحت له كل ما حدث وكتب البيانات على ظهر ورقة الغلاف الداخلى لعلبة السجاير وتركنا وقام يواصل الفرجة.

-3-

عندما التقينا خليل مرة أخرى قال إنه رأى جعفر عمران ولكنه لم يتحدث معه وذهب إلى ميدان الأوبرا والتقى بالبلتاجى مدير الأعمال وتكلم معه، ثم أضاف أنه لم يفعل ذلك إلا بعد ذهابه إلى قسم الموسكى واطلاعه على المحضر وحديثه مع كاتب الجلسة، وقال إن هذا الخطاب وراءه موضوع خطير جدًا. جعفر عمران كان اتفق مع الحكومة على القيام بمشروع كبير. وكان عليه أن يدفع مبلغًا ضخمًا من المال كثمن أو إيجار

أو تأمين، وهو أعد شيكًا بهذا المبلغ وأرسله، فى ذلك الوقت اكتشفت الحكومة أن العملية ليست سليمة وبها تلاعب، وما أن وصلها الشيك حتى وضعته فى مظروف وأعادته إليه مع إنذاره بإخلاء الموقع، وفى الموعد تم الإخلاء فعلاً وهو رفع قضية مطالبًا بتعويض ضخم، بحجة أنه أرسل الشيك فى موعده والحكومة قبلته ولم تعيده له فى الموعد المحدد فى العقد. خليل قال إنهم يظنون فى النيابة أننى قبضت قرشين من عمران وتواطأت معه فى هذا الموضوع، وقال إنهم سوف يبعدوننى عن منطقة التوزيع بعد عدة أيام، ثم يحولوننى إلى خبير الخطوط لمعرفة إن كنت وقعت على الإيصال أم لا. سألته عما قاله البلتاجى وأخبرنى إنه أنكر موضوع الخطاب طبعًا ولكنه شعر من الكلام إن الحكومة لو سجنتنى فإن الشركة ممكن تعوضنى وقلت:

- تسجنى إزاى؟ إنت اتجننت؟

قال:

- أنا باحكى لك اللى حصل.

-4-

حولونى إلى مكتب بريد الجيزة وأوكلوا لى عملاً بعيدًا عن توزيع الخطابات حتى تنتهى التحقيقات. كان قسمًا صغيرًا يسمى الاستعلامات أشغله وحدى؛ حيث أقوم بالرد كتابة على استفسارات الجمهور حول خطاباتهم المسجلة التى لم تسلم سواء أكانت مرسلة منهم أم صادرة إليهم، وذلك بالرجوع إلى الدفاتر بتواريخها وإيصالاتها الملصقة. وكان المكتب على ناصيتين، وهو عبارة عن عدة دكاكين مغلقة الأبواب ما عدا بابًا واحدًا يطل على الطريق العام. وأنا كنت أجلس إلىَّ مكتب خشبى صغير فى طرقة داخلية بين إحدى حجرات المكتب ودورة المياه. وكان كل من يتجه إليها يمر علىَّ وهو يفك أزرار أو سوستة البنطلون وكل من يغادرها يمر علىَّ وهو يدخل قميصه أو يغلق هذه الأزرار أو هذه السوستة، وفى هذا الممر الضيق كانت الرائحة خانقة لا تطاق. هكذا رحت أمضى الوقت بالتنقل بين حجرات المكتب المفتوحة على بعضها أو بالتمشية على الرصيف والفرجة على الدكاكين المجاورة أو أجلس على مقاعد المقهى الذى يوجد فى الجانب الآخر من الطريق أمام المكتب مباشرة؛ حيث كانوا يضعون مقاعد القش على الرصيف

مع مناضد صغيرة من الحوامل الحديدة الرفيعة والأقراص النحاسية. مع الوقت صار هذا هو موقعى المعروف ومن يريدنى يجدنى هناك. كنت أحضر صباحًا أوقع وأجلس فى الهواء الطلق أشرب الشاى أو القهوة وأراقب الناس وأفكر فى محنة هذا الخطاب والنيابة وخبير الخطوط الذى يكتشف التزوير. أظل مستغرقًا فى هذا وفى أشياء أخرى كثيرة متعلقة بنفس الموضوع.

ينظر إلى الجدار ويتكلم

-1-

مع ترددى بين المقهى والمكتب، كنت لاحظت واحدًا نحيلاً يرتدى سترة رمادية قديمة، يعطى وجهه لجدار داخلى ويتكلم وحده كلامًا موصولاً عبارة عن فحيح غير مفهوم. كنت أراه من الجنب، وهو يقوم بحركات عصبية كأن يغلق عينيه ويفتحهما ويرفع حاجبيه أو يضم شفتيه إلى الأمام، ثم يسحبهما إلى الجانبين ويوسع فمه. كان يشبك يديه وراء ظهره ورأسه حليق بالماكينة. فى البداية لم أهتم كثيرًا لأن مثل هذه النماذج التى تتحدث للجدران أو لنفسها لا تخلوا منها قاعة من قاعات المصلحة.

-2-

كنت أمضى ساعات العمل جالسًا بالمقهى، ثم أدخل المكتب أوقع وأعود إلى البيت. وكانت أمى تتجول بالشقة على غير

هدى بعدما عصبت رأسها بينما إخوتى الصغار يتابعوننى فى الشقة وقد رفعوا وجوههم إلىَّ. كانت هى تستقبلنى بعينين شبه دامعتين وكنت أبتسم لها وأحاول أن أخفف عنها وأفتح الراديو الذى أغلقته طول النهار، حينئذ يظهر شىء من الاطمئنان على إخوتى ويلعبون داخل الشقة وخارجها.

لم أكن حكيت لأبى شيئًا عما جرى. كنت أعرف أن أمى حكت له وكذلك توفيق. كنا نبتسم لبعضنا البعض إذا التقت أعيننا، ثم ينشغل كل واحد بأى شىء. كنت آكل وحدى معظم الوقت. قبل خروجى إلى المقهى كنت أراه بعدما انتهى من قيلولته يجلس على الكنبة فى آخر الصالة يلف سيجارته بعناية ويتشاغل بقراءة الجريدة. كان يعرف أصدقائى ويثرثر معهم بينما سيطرت على علاقتى به حالة من الحرج والارتباك. كنت أحبه بطبيعة الحال وإذا انفردت به لا أجد ما أقوله. كلامه لى أيضًا كان ودودًا ومقتضبًا لا يتيح فرصة للأخذ أو الرد الأمر الذى كان يرضينى لأنه ينهى انفرادى به فى أسرع وقت. كان يتحدث عنى مع بعض أصدقائى وتوفيق يخبرنى أنه يسأله عنى وعن البنات والسهر والمخدرات. لقد انتهى الأمر بأن صرنا نتعايش باستحياء فى المرات التى نلتقى فيها داخل

الشقة. وعندما كان يقرأ الجريدة كانت أمى ترمقنى فى لوم وتهمس لى:

- أحكى لأبوك.

-3-

اقتربت متمهلاً من الكنبة. جلست وقلت:

- عرفت اللى حصل؟

قال: سمعت.

كان طوى الجريدة وضعها إلى جواره، وثنى رجله ووضع مرفقه على ركبته العالية بينما تدلت المسبحة من أطراف أصابعه وانتبه لى تمامًا. كنت أجلس بطريقة غير مريحة لأنى استدرت بنصفى الأعلى لكى أوجه كلامى إليه. قصصت عليه ما جرى كله فى اختصار. رجل أعمال كبير من سكان المنطقة دخل مشروع مع الحكومة واتفق معهم على دفع مبلغ من المال. والحكومة اكتشفت أنه تلاعب فى الوقت الذى وصلها المبلغ المتفق عليه. لو استلمته فى المدة القانونية يصبح المشروع ساريًا، لذلك لم تستلمه، بل ردته له بشيك فى خطاب حكومى. وأخلوا المشرع ورموا معداته فى الأرض العراء. وهو استلم

الشيك وانتظر حتى انتهت المدة القانونية ورفع قضية يطالب بتعويض عن رمى المعدات وتنفيذ العقد؛ لأنه سدد التزاماته فى المدة القانونية والحكومة قبلتها. ولما الحكومة قالت إنها ردت له الشيك قبل انتهاء المهلة، قال هو إن ذلك لم يحدث ولم يستلم شيئًا.

سمعنى وقال: لكن هو استلم الجواب اللى فيه الشيك.

قلت: آه.

- ووقع على الإيصال؟

هززت رأسى نافيًا. التفت إلىَّ بعينيه الجميلتين، ومقدمة رأسه الخالية من الشعر. قلت: أنا اللى وقعت.

وكان عندما يفكر يضم شفتيه ويمدهما إلى الأمام، وبعدما فعل ذلك قال إن خليل المحامى أخبره أن النيابة تظن أن الرجل أعطاك قرشين لكى توقع مكانه.

علمت أنه يسأل من ورائى، وقلت له إن خليل المحامى حمار واعتدلت فى جلستى. وهو التفت وقال: يعنى الرجل لم يعرض عليك فلوس.

قلت: لا طبعًا.

قال: الله. أمال إيه اللى خلاك توقع.

– ما أنا قلت لك إنه طلب منى فى حالة وصول مسجل، أوقع بدالهُ.

هز رأسه وقال: أيوه صحيح.

وتناول الجريدة.

بعدما تركته وقمت، لمحت أمى ترمقنى من بعيد.

لم يعد للكلام بقية

-1-

انتبهت فجأة للشاب الذى يرتدى السترة الرمادية ويعطى وجهه للجدار ويتكلم. قالوا لى إن اسمه سليمان، مريض يسكن قريبًا من المكتب، وأن أمه تأتى به كل صباح وتعود لتأخذه. عندما اقتربت وجدته سليمان الشاعر. كانت ملامح وجهه تشوهت بسبب من الحركات العصبية التى يقوم بها طيلة الوقت. وهو التفت برأسه الحليق وتطلع بحاجبين مرفوعين عن عينين مليئتين بالدهشة والهلع.

لم يعرفنى، وأدركت أننى فقدته إلى الأبد.

-2-

كانت أيامًا صعبة. وكنت ما أزال اذهب إلى قصر الدوبارة. لمِ أعرف ما الذى كنت أعول عليه. كنت أدرك أنها قضية كبيرة

بين جعفر عمران والحكومة، ولكن صدمتى كانت كبيرة فى الرجل الذى كان دائم الكلام والضحك معى وهو يقابلنى بوجه محايد ويتشاغل عنى ويعطينى ظهره إذ أقترب. حتى زوجته الإنجليزية التى تسكن شقة مستقلة فى العمارة المجاورة للتى يسكن بها ويلتقيان بين آن وآخر، والتى كانت دائمة الوقوف معى للكلام والضحك بلهجتها المكسرة. المرة الأخيرة رأيتها تمشى بقامتها النحيلة وفستانها الخفيف القصير، وهى تسحب وراءها كلبها الدقيق الذى يدرج على الرصيف ويعرفنى بدوره لم تفعل إلا أن التفتت من بعيد وهزت رأسها بشعرها الأسود الملموم وواصلت طريقها فى صمت. حتى سعيد السفرجى صار يتجنبنى. لم يكن ممكنًا للأمور أن تنتهى هكذا أبدًا. كان توفيق يمر على كل مساء حيث نذهب إلى المقهى.

نجلس شبه صامتين فى انتظار خليل المحامى الذى قال إنهم على وشك أن يطلبونى للذهاب إلى خبير الخطوط فى مصلحة الطب الشرعى. وعندما كنت أعود إلى البيت أمضى طول الليل أمام الأوراق وأتدرب.

-3-

كنت طلبت منه أن يخبرنى ما الذى سوف يفعله الخبير بالضبط، وخليل قال إنه سوف يضع الدفتر أمامى مفتوحًا، وإلى جواره مجموعة من الورق الأبيض، وسيطلب منى أن أنظر إلى توقيع جعفر عمران وأكتب مثله عدة مرات. بعد ذلك سوف يأخذ الدفتر والورق بعيدًا ويعطينى واحدة جديدة ويجعلنى أواصل الكتابة حتى أملأ الورقة، ثم يصرفوننى ويقوم الخبير بالفحص وكتابة تقريره وتقديمه للنيابة.

-4-

بعد ما فكرت فى هذا الكلام فهمت منه أنهم عندما يضعوا التوقيع أمامى ويطلبون أن أكتب مثله، إذا لم يكن الخط خطى فسوف يكون الأمر واضحًا مهما كانت عدد المرات التى سوف أكرره فيها. أما إذا كان الخط خطى فإننى بالطبع سوف أكتب بخط مختلف عما أراه، وما أن يأخذوا الأوراق من أمامى ويطلبون منى أن أكرر ما كتبته فإننى لن أستطيع الاستمرار بنفس الطريقة؛ لأن أحدًا لا يستطيع طول الوقت أن يكرر خطًا ليس خطه.

كنت أعرف شكل التوقيع الذى وقعته، وهو كتابة اسم جعفر عمران مثل توقيع سريع. ولم يكن أمامى والحال هكذا إلا أن أخترع لنفسى خطًا مختلفًا وأن أتمرن عليه ليل نهار حتى يصير هو خطى الأصلى الذى يمكننى أن أكرره مئات المرات دون أى تغيير. وأنا عكفت ليل نهار أتدرب على خط لا يخصنى حتى أصبحت مطمئنًا أنه صار يخصنى. وأى ورقة تصادفنى فى أى مكان كنت أخرج القلم وأتدرب.

–5–

جرى الأمر كما أخبرنى خليل المحامى تمامًا. وضعوا أمامى الدفتر مفتوحًا وعلامة حمراء تحيط بخانة التوقيع وطلبوا منى أن أكتب مثله. كانت أمى طلبت منى أن أقرأ الفاتحة لأم هاشم قبل أن أكتب. قرأتها وركزت تمامًا واستحضرت الخط الجديد الذى صار خطى. بعد قليل حملوا كل شىء وتركوا لى عدة أوراق بيضاء وطلبوا منى أن أستمر بالكتابة. تركونى وحدى فى الحجرة، وخرجوا.

-6-

بعد عدة أيام استأجرت العائلة ميكروباص واتجهوا إلىّ جميعًا إلى نيابة الموسكى، أمى وإخوتى الصغار والجيران، بينما سبقتهم برفقة توفيق مع خليل المحامى الذى دخل تركنا جميعًا عند الناصية. كنت خائفًا غير مصدق أننى يمكن أن أسجن بسبب شىء مثل هذا. ثم لمحنا خليل يهبط الدرجات القليلة فى بذلته القديمة، حافظة الجلدية فى يد بينما يسوى ربطة عنقه الحمراء بالأخرى، أسرعنا نحوه، وهو قال إن الموضوع انتهى؛ لأن الخبير كتب فى التقرير أن الخط الذى على الإيصال ليس خط عبد الله.

أخيرة

عندما دخلت العيادة صافحنى الطبيب مرحبًا، وجلست أمام مكتبه وقال إنه أوشك أن يتصل للاطمئنان على بعدما تأخرت طويلاً. وقال:

إيه الأخبار؟

قلت:

الحمد لله، ماشى الحال

ورحنا نتحدث عن البلد وأحوالها وضحكنا، ثم سألنى عن عدد الوسائد التى أنام عليها وقلت له إنها وسادة واحدة أضعها على المخدة وأنام، ثم سألنى إن كنت أتنفس بصورة عادية أم على هذا النحو، وراح يشهق ويزفر بطريقة شبه متلاحق وأخبرته أننى، غالبًا، أتنفس مثلما أتنفس أمامه الآن وبان عليه السرور وقال:

جميل جدًا.

وقام واقفًا.

- تفضل.

سألته مثلما اعتدت أن أسأله فى كل مرة إن كان على أن أخلع حذاءى وهو قال إن لا ضرورة لذلك، حينئذ خلعت سترتى واستلقيت على السرير الضيق وعريت صدرى، بينما جلس هو على المقعد المجاور لى وضغط الأنبوبة وأفرغ منها كمية صغيرة من السائل السميك على صدرى من ناحية القلب وراح يضغط بالسماعة البيضاء الموصولة بالكمبيوتر ويحركها بقوة على هذا الموضع وحوله، وهو يتابع الشاشة الجانبية التى لا أراها. بعد ذلك طلب منى أن أميل إلى جانبى الأيسر وراح يضغط السماعة كما فعل فى الأول، وعندما انتهينا انتقل إلى مكتبه وهو يقول:

- جميل جداً.

اعتدلت أنا جالساً وتناولت قطعة القطن من الممرضة الباسمة وجففت صدرى، ثم ألقيتها فى السلة المعدنية إلى جوار السرير الضيق وأعدت قميصى إلى مكانه داخل البنطلون وارتديت سترتى وجلست أمام المكتب وناولته قائمة العلاج القديمة وهو فردها أمامه وراح يكتب واحدة أخرى، ثم ناولنى الاثنين، وقال إنه لم يضف شيئاً جديداً ورافقنى حتى باب حجرة الكشف وصافحنى مودعاً.

عبرت الصالة المزدحمة بالمرضى وقبل أن أغادر المدخل مررت بالممرضة التى ابتسمت لى مودعة هى الأخرى. كانت العيادة فى الطابق الثانى وأنا نزلت الدرج على مهلى أتشبث بالسياج الخشبى الناعم حتى غادرت المبنى ومشيت وحيداً على رصيف الشارع شبه الخالى وأنا أشعر بخطواتى متمهلة غير متزنة ولم أعرف إن كان ذلك بسبب اعتلال صحتى أم بسبب تقدمى فى العمر أم بسبب الاثنين معًا، وظللت هكذا حتى لاحظت رذاذًا تناثرت حباته على سطوح العربات المركونة جانبى الشارع الممتد، وفى ذلك الوقت المتأخر من الليل بدا الهواء منعشًا من النافذة المفتوحة وأنا أجلس إلى جوار سائق التاكسى الذى كان صامتًا، وعندما رأيت علبة سجائره موضوعة أمامه قلت:

- ما تعزم على بسيجارة.

وقال:

- من عينيا.

وأعطانى واحدة أشعلها لى وهو يراقب الطريق الذى كان خاليًا. أخبرته أنهم يمنعوننى من التدخين، ولكننى أرغب أحيانًا فى تدخين واحدة، ورحت أدخن.

المحتويات

صديق
قديم جدا

في آخر رواياته، يأخذنا "إبراهيم أصلان" في رحلة مدهشة، يتداخل فيها الذاتي بالخيالي، ليقدم نصاً بديعاً يتوفر فيه جميع الخصائص الفنية والأسلوبية التي أسستها كتابة صاحب "مالك الحزين" وحفرت لها بعمق في التربة السردية العربية. كعادته، يبدأ أصلان من لحظة عابرة ليحولها بيد صائغ إلى عالم واسع محتشد بالتفاصيل. من البحث عن اسم صديق قديم غاب في غبار الأوراق المهملة وتخلت عنه الخرائط، يبدأ البحث، وتتشكل رحلة الاستحضار: استحضار وجود غاب أبطاله الأصليون مخلفين بالكاد أسماء علقت بالذاكرة وتشبثت، رافضةً مغادرتها. هكذا يخوض أصلان في "صديق قديم جداً" بحثاً محموماً، مدعوماً بذاكرة ما تزال واثقة في قدرتها، ليس فقط على استعادة عالم مندثر، لكن، أيضاً، على ترميمه، لينهض متجسداً مكتملاً كأنه لم ينسلخ عن صاحبه يوماً.

رواية استثنائية، تنشر لأول مرة، ليكتمل عقد أصلان الروائي بها، مؤكدة على عالمه المتفرد والذي لا يشبه سوى نفسه.



إبراهيم أصلان (١٩٣٥_ ٢٠١٢)، روائي وكاتب مصري، يعد أحد ألمع كتاب جيل الستينيات وأحد أبرز كتاب الرواية والقصة العربية في تاريخها. من أبرز أعماله: مالك الحزين، بحيرة المساء، وردية ليل، عصافير النيل، حجرتان وصالة وغيرها. ترجمت أعمال أصلان للعديد من اللغات وحصل على عدة تكريمات وجوائز كانت آخرها جائزة النيل للآداب.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

ISBN# 9789779101705

6 221149 035492

١٢ جنيهًا

الهيئة المصرية العامة للكتاب